

لصوص السراويل

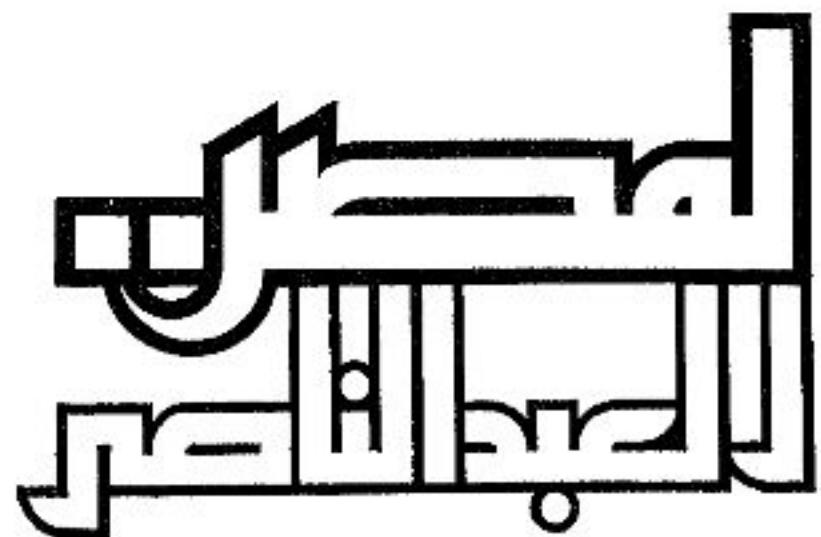


اهداءات ١٩٩٩

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

الطبعة المصورة للكتاب



الطبعة الأولى (في مصر)

١٤٠٨ - ١٩٨٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة

تلفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠١ يوان

غلاف

عبد الغنى أبو العينين

المحتويات

مقدمة الطبعة العربية ٥	
مقدمة الطبعة المصرية ١٥	
الحديث الأول	
الحملة على جمال عبدالناصر	
ماذا وراءها؟ .. ومن وراءها؟ ١٧	
الحديث الثاني	
مجموعة القيم الاجتماعية	
لدى جمال عبد الناصر ٢٧	
الحديث الثالث	
الحكم القائم في مصر الآن	
و قضية عبد الناصر ٣٩	
الحديث الرابع	
حكايات المذابح	
اليمن .. القضاء .. وحرية الصحافة ٤٩	
الحديث الخامس	
قصة التجاوزات	
الاعتقالات والحراسات والفصل التعسفي ٦٥	

□ الحديث السادس	نيران الصراع الطيفي
77	من أشعلها في مصر
□ الحديث السابع	هل وزع الفقر
89	وخلف وراءه تركة مثقلة ؟
□ الحديث الثامن	عبد الناصر
99	والحركة العربية العامة
□ الحديث التاسع	النكسة ... ١٩٦٧
111	□ الحديث العاشر
127	الصدام مع الولايات المتحدة الأمريكية
□ الحديث الحادى عشر	عبد الناصر وفتح الأبواب للاتحاد السوفيتى
141	□ الحديث الثاني عشر
155	نهاية المطاف

مقدمة الطبعة المصرية

كل كتاب له علاقة خاصة بكاتبه ، فهو قطعة من حياته . فكره وعمله وتجربته . استومنت عليها صفحات وسطور وحروف ! وما يبوج به أى كاتب - في مجمل ما يكتبه . هو في الحقيقة مراحل عمره ...

ومراحل عمر أى كاتب ليست مجرد توادر واتصال ونكرار ، وإنما هي عالم إنساني بأكمله : عالم متنوع متناغم مختلف مؤتلف ، فكل يوم وكل ساعة وكل لحظة لها طعم ولها لون ولها عبق متميز تدركه الحواس وتستشعره ، وتدوب فيه أحياناً أو يذوب فيها !

وهذا الكتاب لحظة من العمر لها إيقاع خاص : مزاج متداخل من الحزن والشجن ، من الشعور بالاستفزاز والرضا بقبول التحدى . وهي لحظة من العمر كانت بداية لسبع سنوات لها قيمة معينة في حياته . من سنة ١٩٧٤ إلى سنة ١٩٨١ .

سبعينات من قتال شديد ، كان هذا الكتاب هو الطلاق الأولى فيها من جانبي على الخطوط ، وبعدها تزايد القصف المتبادل حتى وجدت نفسي في النهاية وراء قضبان سجون « طرة » في سبتمبر سنة ١٩٨١ مع كثيرين غيري لم يجدوا مفرأً أمامهم عند نقطة فاصلة من تاريخ مصر . غير حمل السلاح ، بالموقف والقلم والكلمة . والدخول إلى ساحة المعركة .



والحاصل أن هذا الكتاب كان مجموعة مقالات صببتها فوق الورق على عجل ، وفي مناخ ضغط غليظ لا تتحمل غلاظته ، ودفعت بها إلى النشر حيث أتيح المجال له مدركا أنها البداية ، وأما النهاية فعلمها عند الله !

ولم يكن لهذه المقالات مجال للنشر في حينه - إلا خارج مصر ، ولم أكن أتوقع أنها سوف تنشر في مستقبل قريب داخل مصر ، ومع ذلك فقد كان همي كله أن أقول وأن أسجل ، ولتأت المقادير بعد ذلك بما تقضى به وتحكم . وقد كان !

وشاء الله أن يجيء المستقبل الذي لم أتوقعه قريبا .وها هو الكتاب يطبع في مصر وينشر لأول مرة ، وهكذا أجد مناسبا أن أضع أمام القارئ المصري صورة عامة للأجواء التي أحاطت به عند لحظة البداية .

ولست أنوي هنا أن أغوص في تفاصيل خلافى مع الرئيس « أنور السادات » . يرحمه الله . فليس هذا وقته ولا مجده ، كما أنتي لا أريد للتفاصيل والروايات أن تأخذنا وراء ما نحن بصدده فى هذه اللحظة ، وفي التقديم لهذا الكتاب .

باختصار ، وفي الشهور الأخيرة من سنة ١٩٧٣ . كان موقفى كما يلى :

١ - منذ الصيف الساخن سنة ١٩٦٧ وحتى الخريف المعبا بالاحتمالات سنة ١٩٧٣ كنت شديد الإلحاح على نقطتين وجذبها أساساً للخروج من مأزق النكسة :

● أولاهما ضرورة العمل على « تحديد أمريكا » باستعمال وسائل الضغط المتاحة للعرب استراتيجيا . وأهمها الموقع والموارد . باحتمال وإمكانية أن يختل التطابق الكامل بين سياستها وسياسة إسرائيل في المنطقة . حتى وإن بقيت هناك

مساحة واسعة للتوافق . وكان ظنى أنه من المستحيل حل ما اصطلح على تسميته بأزمة الشرق الأوسط في ظل قطيعة كاملة بين العرب وأمريكا ، والعرب الذين أقصدهم هنا هم عرب « المواجهة » .

● والنقطة الثانية هي الحتمية التي لا مفر منها لمعركة عسكرية محدودة ، وكان ظنى أن الحرب المحدودة هي الحرب الوحيدة الممكنة في ظل الأوضاع النوروية المسيطرة على العالم . وكان تقديرى أن هذه الحرب اذا ما أحسن استغلالها قادرة على تحقيق نتائج سياسية غير محدودة ، خصوصاً إذا تذكرنا أن الحرب بطبيعتها عمل سياسى يستهدف بالدرجة الأولى تعديل الموازين بين الأطراف حتى يصبح الحق مقبولاً والعدل ممكناً .

كانت الموازين قد مالت بشدة لصالح إسرائيل بعد سنة ١٩٦٧ . ولم يكن هناك مفر من تعديل هذه الموازين قبل الاقتراب من أى حل .

٢ - وجاء يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وبالذات افتتاحية العبور المجيدة فيه ، بأوضاع قريبة إلى حد كبير مما تمنيت . وكان تقديرى أنها فرصة العمر التي وضعت من أجلها الأمة جماع طاقاتها وفي ظروف دولية عصبية ، وبالتالي فإن استغلال هذه الفرصة سياسياً إلى أقصى حد هو بالنسبة للعرب مطلب حيوى يتعلق به مستقبلهم لعقود طويلة قادمة . وكان تخوفى أنه إذا أفلتت الفرصة أو تسربت من بين أصابعنا فان سنوات طويلة من العسر قد تكون فى انتظارنا على الطريق ، وبصرف النظر عن اليسر الظاهر وراء ارتفاع أسعار البترول وقتها . فالهوان السياسى لا يرده مال ، والهوان الاجتماعى لا يعالجه غلى .

وهكذا فقد كنت أعتبر أن الفترة التالية للمعارك أهم وأدق من فترة المعارك ذاتها ، فالمعارك هي ساعة وضع البذور في الأرض ، وما بعد المعارض هو فترة الحصاد ، وإذا تبدد المحصول أو ضاع فقد تبددت وضاعت جداول الدم التي روت الأرض !

٣ - وكان أهم ضمان من وجهة نظرى لتحقيق نتائج سياسية غير محدودة لحرب عسكرية محدودة هو المحافظة على التحالف الكبير الذى جعل يوم العبور ممكناً وتأكيد استمرار قواه حاضرة جاهزة معبأة . وكانت أطراف هذا التحالف كما رأيتها وقتها هي : القوة العربية المسلحة ، والقوة الاقتصادية للبترول وفوانصه ، والتأييد السوفيتى الكامل للموقف العربى ، والاهتمام الأمريكى النشيط بالأزمة ، والتعاطف العالمى الظاهر مع الحقوق العربية .

وكان اعتقادى أن مفتاح الموقف فى يد مصر :

إما أن تقود المعركة السياسية من أجل حل شامل وعادل .

واما أن تؤثر أسهل الطرق فتخرج إلى حل منفرد - وذلك إذا حدث سوف يؤدي إلى كوارث مؤكدة :

□ من ناحية فان التماسك العربى كله سوف ينهار .

□ ومن ناحية أخرى فإن مصر نفسها سوف تتعزل وتصعب عليها مهام التنمية بعد الحرب ، كما تصعب عليها مهام الانتقال الاقتصادي والاجتماعي والفكري من تبعية الحرب إلى سلام منظم يتلاعم مع الحقائق الجديدة في العالم .

□ ومن ناحية ثالثة فإن شعوب الأمة العربية كلها سوف تسقط رهائن بما فيها هؤلاء الذين امتلأت خزائنهم بالمال نتيجة لملابسات الحرب وأولها ارتفاع أسعار البترول ، ذلك لأن الثراء الطارئ سوف يتحول إلى سلاسل

ذهبية (وهذا هو نص تعبيرى أيامها) لا تختلف كثيراً عن سلاسل الصلب والحديد !

وأخيراً فإن الأهمية الدولية للعالم العربى كله سوف تتقلص ، فحين تصبح الدول والشعوب رهائن فليس لدى الآخرين ما يقدمونه لها سوى الدموع . والدموع ليست أساساً صالحأ لسياسة !

إن الأمور راحت تسير فى اتجاه آخر ، واختلفت ، وشعرت أنه لا مفر من أن أعلن خلافى ، وأعلنته فى سلسلة من المقالات نشرت فى «الأهرام » ابتداء من أواخر شهر أكتوبر ١٩٧٣ وحتى أول شهر فبراير ١٩٧٤ ، ووجد الرئيس «السادات » بعدها أن استمرار بقائى فى «الأهرام » أصبح مستحيلاً من وجهة نظره بسبب التعارض - والتصادم بين آرائنا ، وهكذا خيرنى بين دخول الوزارة أو العمل مستشاراً للأمن القومى معه ، وكان ذلك حلاً توفيقياً لا تحتمله طبائع الأحوال . وأراد - رحمة الله - أن يضعنى أمام الأمر الواقع فأصدر قراراً بتعيينى مستشاراً للرئيس واعتذر . وتضائق هو من أتنى فى يوم خروجى من «الأهرام » لآخر مرة - ٢ فبراير ١٩٧٤ . أجبت على سؤال لوكالات الانباء العالمية على نحو لم يرق له . كنت قد سئلت تعليقاً على ما جرى وقلت : « إن الذى حدث شيء عادى . لقد استعملت حقى فى إيداء رأى واستعمل الرئيس السادات سلطته فى إخراجى من الأهرام وهذا هو كل شيء » ، ثم سئلت إذا كنت سأنفذ قرار التعيين مستشاراً للرئيس وقلت : « إن الرئيس يملك أن يقرر إخراجى من الأهرام ، وأما أين أذهب بعد ذلك فقرارى وحدى . وقرارى هو أن أترفع لكتابة كتبى ... فقط » !

وليونين تاليين جرت محاولات معى واتصالات ، ولم أغير رأى ولا موقفى !



ومضت ثمانية شهور - من فبراير الى أكتوبر ١٩٧٤ - والطرق بيننا غير سالكة كما يقول إخواننا في بيروت ، حتى تفضل هو يوم أول أكتوبر فاتصل بي على غير انتظار ، ثم تلقينا ، وتحدثنا ، واقترحت عليه بعد لقاء طويل أن نبقى أصدقاء ، وأن نستبعد في الوقت الراهن على الأقل أية فكرة عن المراكز والمناصب والمسؤوليات قائلًا : « إنني في الأوضاع الراهنة لا أريد غير مكان ومكانة الصديق » ، وتكررت لقاءاتنا وطالت أحاديثنا ، وحضرت معه مفاوضاته مع « هنري كيسنجر » في المحاولة الأولى لفك الارتباط الثاني وقد جرت في أسوان في شهر مارس من سنة ١٩٧٥ . ولم تنجح هذه المحاولة ، ولم يكن شديد الأسى على فشلها ، بل إنني أحب أن أتصور أنه كان لي نصيب . ولو ضئيل - في إفشالها !
وسارت الأمور بعد ذلك .

وليس الآن مجال لحكايات تلك الأيام ووقائعها وحواراتها فهي خارج موضوع التقديم للطبعة المصرية من هذا الكتاب ، وإنما المهم في هذا الشأن هو ما حدث في الساعة السادسة مساء من يوم ١١ أبريل سنة ١٩٧٥ في مكتب السيد « ممدوح سالم » - متعمه الله بالصحة والعافية وأطّال في عمره - وكان وزيراً للداخلية وقتها - ومكلفاً بتشكيل وزارة جديدة تخلف وزارة الدكتور « عبد العزيز حجازي » التي قرر الرئيس « السادات » فجأة أنه يريد تغييرها !



دعاني السيد « ممدوح سالم » إلى لقائه في الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم - ١١ أبريل - ليعرض على الاشتراك في وزارته نائباً لرئيس الوزراء وختصاً بالإعلام والثقافة ، وسمعت عرضه الرقيق كاملاً بما فيه تصوره لمهمة وزارته وأماله فيما تستطيع تحقيقه ، واتفاقه مع الرئيس « السادات » على مجلس للسياسات العليا يرأسه رئيس الجمهورية ومعه

رئيس الوزارة وخمسة نواب لرئيس الوزراء أنا بينهم - وأنهم سوف يعملون كفريق رسم ومتابعة سياسات الدولة بسلطات كاملة .

وعندما فرغ السيد « ممدوح سالم » من حديثه أبدى له اعتذاري وأبدى له أسبابي مفصلة في حوار بينما استغرق ساعتين كاملتين .

كانت هناك أسباب متعلقة بالسياسات الداخلية والخارجية للحكم وهي سياسات لا أوفق عليها وبالتالي لا أستطيع أن أنفذها أو أعبر عنها .

وكانت هناك أسباب متعلقة بطبعات السلطة والحكم في مصر وقتها .

وكانت هناك أسباب أخرى .

ثم قلت ، وهذا هو الموضوع الذي يهمنى فى التقديم للطبعة المصرية من هذا الكتاب ، إن لدى سبباً آخر قد يبدو شخصياً والحقيقة أنه أكثر من ذلك !



وقلت للسيد « ممدوح سالم » ، والرجل يستطيع أن يشهد على ذلك الآن ، ما يلى بالحرف تقريراً !

قلت له :

- « إننى أرى الآن بداية حملة على « جمال عبد الناصر » ، وهى حملة جائرة وظالمة ، وأنا لا أستطيع أن أوفق عليها فضلاً عن أن أشارك فيها ولو حتى بطريق غير مباشر . ولسوف أجد نفسي شريكاً في هذه الحملة شئت أو لم أشاً إذا أنا قبلت منصب نائب رئيس الوزراء للإعلام والثقافة .

سوف أجد نفسي أمام احتمالين لا ثالث لهما :

● إما أن أترك الحملة تستمر وتتزايد - وهو ما أتوقعه مع الأسف .

● أو أن أمنع مثل هذه الحملة بسلطة الرقابة . ومهما يكن من رأي في شأن هذه الحملة ، وفي شأن القائمين بها ، وفي شأن القوى العربية والدولية التي تشجع عليها - فإنني كصحفي لا أتصور أن أستعمل سلاح الرقابة لمنعها ! ٠ ٠

ثم قلت :

- «إنني وقد اعتذرت عن المنصب أريد ولو جه الله والوطن أن أنبه إلى مخاطرها . فهذه الحملة سوف تؤدي ضمن ما تؤدي إليه إلى تقويض شرعية النظام؛ لأنها تضرب فيه عند الأساس . والحقيقة أن ما يحدث هو أشبه ما يكون برجل يقف على فرع شجرة ولا يشغل نفسه إلا بقطع جذعها ، ناسياً أنه إذا سقط الجذع فإن كل الفروع سوف تنهار !

إن تجربة ٢٣ يوليو بالطبع ليست فوق النقد والحساب ، ثم إنني أنا الذي كتبت يوم الأربعين بعد وفاة «جمال عبد الناصر» مقالاً عنوانه «عبد الناصر ليس أسطورة» ، أى إنني لا أؤمن بالقداسات للبشر وإنما أؤمن ب الإنسانية البشر وأول مقتضياتها أن كل التجارب قابلة للنقد كما أن أدوار كل البشر - بما فيهم الأبطال - قابلة للتقييم شرط أن تكون الجدية والموضوعية أساساً للنقد وأساساً للتقييم . أما أن يتحول الأمر إلى حملات إدانة كاسحة فهذا ليس تجنياً على تاريخ مصر فحسب ، وإنما هو نحر في شرعية النظام من أساسه . وإذا كان ما ينسب لثورة ٢٣ يوليو ولجمال عبد الناصر على النحو الذي تقول به الحملات الآن فليس أمام النظام الذي يدعى أنه استمرار لثورة ٢٣ يوليو - والذي لا يملك أساساً للشرعية غيرها - إلا أن يجمع أوراقه ويرحل ! ٠ ٠

قلت هذا كله بتفاصيل التفاصيل . وقلت غيره وبقيت على اعتذاري ولم
أغير رأي !



ومرت أسابيع وشهور والحملة على « جمال عبد الناصر » تتزايد وتتشدد يوماً بعد يوم ، ولا تعرف حداً تقف عنده بل وتسبيح كل الحدود : التاريخ والأمانة والأخلاق والشرف جميعاً .

ولم تكن الحملة في حقيقة الأمر على الرجل نفسه ، فالرجل نفسه كان في رحاب الله منذ سنوات وليس بين البشر جميعاً من يملك له ثواباً أو عقاباً .

كان واضحاً أن الحملة تستهدف مبادئ معينة ، وفيما معينة ، ولحظات معينة في تاريخ مصر وأمتها العربية .

وكان واضحاً أن هذا كله يجري لحساب قوى وأطراف بعضها يعرف ما يفعله وبعضها لا يعرف !

ويوماً بعد يوم كنت أشعر أكثر وأكثر بالضيق والاستفزاز .
وذات يوم قررت أن أكتب مجموعة مقالات تحت عنوان « لمصر لا
لعبد الناصر » .

وكانت هذه المقالات .

ثم جرى جمعها بين دفتى كتاب !



لا أقول أكثر من ذلك في التقديم لصفحات كتبت من أجل خاطر مصر ،
وليس من أجل خاطر « جمال عبد الناصر » ، وإنما أدعو القارئ أن
يتفضل إلى قراءتها منشورة دون تغيير حرف واحد على النص الأصلي

لها . وإن كنت في بعض المواقع قد أضفت بعض الهوامش على هامش
النص الأصلي وحينما وجدت ذلك لازماً ومفيداً ..

ولقد نشرت هذه المقالات - أيامها - خارج مصر لأنه لم يكن أمامي
وقتها مجال في مصر ، وفي كل الأحوال فلست واحداً من الذين يعترفون
بوجود خطوط حدود إقليمية على أرض الأمة العربية . ولم تزعجني كثيراً
تهمة الإساءة إلى مصر خارجها ، وقد بدأ توجيهها إلى في تلك الأيام .
فلقد كنت أعرف في صعيم قلبي أنني بما أكتب لا أسيء إلى مصر ، وربما
قلت بغير ادعاء إن يقيني كان عكس ذلك .



بقى شيء واحد أريد أن أستاذن قارئ الطبعة المصرية من هذا
الكتاب - فيه ، ذلك أنني أريد إهداءها إلى ذكرى صديق كان له فضل
الحفاوة بما كتبت في تلك الفترة العاصفة ، وأقصد به الصحفى اللبناني
الراحل الأستاذ « سعيد فريحة » صاحب ومؤسس « دار الصياد » .

لقد جلبت له مقالاتي - وبينها ما يحتويه هذا الكتاب . مشاكل كان في
غنى عنها ، وخُير في كثير من الأحيان فاختار ، ووقف مع اختياره بغير
شكوى وبغير ندم .

والاليوم وهذه الصفحات تطبع وتنشر في مصر فإنني أتمنى لو
استطعت تحويل حزمة الورق إلى حزمة زهر أضعها على قبره ..
اعترافاً بالفضل ومحبة .

محمد حسين هيكل

القاهرة - سبتمبر ١٩٨٧

مقدمة الطبعة العلبية

ليست هذه الأحاديث محاولة للدفاع عن جمال عبد الناصر وشخصيته وعصره ، ولكنها رواية مختصرة لمشاهد رأيتها بعيني . ولقد اخترت لها وقائع تتصل ببعض ما يثار اليوم في الحملة ضد جمال عبد الناصر ، ولم يكن هدفي أن أرد أو أدافع أو أسجل للتاريخ ، فذلك كله لم يجيء أو وانه بعد . وإنما كان هدفي أن يعرف الشعب في مصر ، وتعرف شعوب الأمة العربية ، أن الحقيقة ليست ما يدعى به اليوم فيما ينشر ويقال في القاهرة .

وأعرف مقدماً أن هذه الأحاديث لن تصل إلى القارئ المصري ، وذلك يحزنني ، ولكنه أمر لا حيلة لى إزاعه ، وإن لم يكن فيه ما يدعوني إلى قبول دور الشيطان الآخر الساكت عن الحق .

وأعرف مقدماً أيضاً أن هذه الأحاديث سوف تشير على ما أنا في خنى عنه ، وسوف أهاجم بسبها دون فرصة لحق الدفاع عن النفس ، وسوف ينسب إلى ما لم أقله ، وأتهم بما لم أقترفه ، ومع ذلك فإني أقبل راضياً وسعيناً ، عارفاً أن كل واحد منا يملك اختيار موافقه ولكن من منا يملك اختيار مقاييره ؟ !

محمد حسين هيكل

القاهرة - فبراير ١٩٧٦

الحديث
الأول

العملة على جمال عبد الناصر
ماذا وراءها ؟ .. ومن وراءها ؟

منذ عدت إلى الكتابة المنتظمة . مرة كل شهر - خارج مصر ، حاولت قدر ما أستطيع أن أتجنب التعرض للسياسات والمواقف المصرية . ولم أقترب من هذه السياسات والمواقف إلا عند الضرورة القصوى ، وفي حرص شديد . . يزن كل كلمة ويدقق في كل اشارة بما في ذلك النقط وعلامات التعجب والاستفهام !

والسبب . وهناك غيره أسباب أخرى - أن الكتابة عن مصر خارج مصر وبقلم مصرى لا تزال مسألة حساسة يمكن تأويتها بادعاء الامانة إلى الوطن خارج حدوده . ومع أن هذا الادعاء باطل لأنه ينكمش بالحدود الحقيقية للوطن العربى الواحد إلى الحدود الضيقية لدولة واحدة من دوله . إلا أن هذا الادعاء ما زال قابلاً للإستغلال . لأن التزعزعات الإقليمية ما زالت مؤثرة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأننا فى داخل الوطن العربى لم نتعود بعد أسلوب الحوار . حوارنا حملات كراهية وحروب بالكلمات . وليس هناك ضمان لأى صاحب رأى بيده . بكل الموضوعية . أن يجد رأيه فى النهاية ذخيرة لمدافع لم يصنع لها فى حملات الكراهية وحروب الكلمات !

ثم إننى - ومنذ البداية - حاولت قدر ما أستطيع أن أتجنب الكتابة عن جمال عبد الناصر وحياته الحافلة وتجربته الكبيرة ، ولم أقرب من الحديث عنه إلا عند الضرورة القصوى .

فعلت ذلك مرة فى أعقاب رحيله مباشرة ، ونشرت مقالاً فى ذكرى الأربعين على رحيله بعنوان ، عبد الناصر ليس أسطورة ، أبديت فيه خشىنى من استغلال المستغلين . لأغراضهم - لقصة البطل فيه والرمز ، وعبرت عن مخاوفى من تحويل تراثه إلى كهنوت غيبى جامد ، بينما هو فى الحقيقة تجربة إنسانية زاخرة قابلة للحياة والنمو والتطور .

ثم فعلت ذلك أخيراً ، وقبل عدة شهور ، فى ذكرى مرور ٢٣ سنة على ثورة ٢٣ يوليو ،

وكانت العملات ضده فى مصر قد تتصاعدت ، وأردت فقط أن أتبه إلى مقاصدھا وإلى مصادرھا . ولعلى لم أتجاوز كثيرا حين نسبتها إلى مخططات قوى السيطرة العالمية بشكل عام ، وإلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بشكل خاص . ولم يكن ذلك تخمينا أو رجما بالغيب ، وإنما كان استنادا إلى حقائق معروفة أكدتها ملفات هذه الوكالة التي كانت مفتوحة لمن يقرأ ويفهم ويستوعب خلال الستينيات الأخيرتين . وكان ذلك بفضل لجنة التحقيق الخاصة التي أشرف عليها السناتور تشرش عضو مجلس الشيوخ الأمريكي . وقد شكلت لبحث تجاوزات وجرائم هذه الوكالة التي كان الزعيم الهندي جواهر لال نهرو يشير إليها دائمًا بقوله « إنها القوة الشريرة الملعونة في زماننا المعاصر » . ولم تكن الملفات قد فتحت بعد ، ولم يكن قد ثبت يقيناً أن هذه الوكالة كانت حرباً لا هواة فيها ضد زعماء الثورة الوطنية المعادية للإستعمار وقيادات التقدم في العالم الثالث عموماً : بعضهم حاولت اغتياله ماديًا وبعضهم حاولت اغتياله معنوياً ، ونجحت في مرات ولم تنجح في مرات أخرى :

● حاولت هذه الوكالة ونجحت في الإغتيال المادي - بالقتل . بالنسبة ، لليندي ، في شيلي ، و ، لومومبا ، في ، الكونجو ، . وحاولت هذه الوكالة ولم تنجح في الإغتيال المادي - بالقتل . بالنسبة ، لكاسترو ، في ، كوبا ، و ، مكاريوس ، في ، قبرص .

● وحاولت هذه الوكالة ونجحت في الإغتيال المعنوي - بالتشويه . بالنسبة ، سوكارنو ، في ، أندونيسيا ، و ، نكرودما ، في ، غانا ، . وحاولت هذه الوكالة ولم تنجح في الإغتيال المعنوي - بالتشويه . بالنسبة ، شوين لاي ، في ، الصين ، و ، أديرا غاندي ، في ، الهند ، . قلت ذلك في يونيو الماضي - في مناسبة مرور ٢٣ منة على ٢٣ يونيو ١٩٥٢ . وأضفت إليه أن ما نشهده ، الآن ، هو محاولة في الإغتيال المعنوي لجمال عبد الناصر ، بعد محاولات متكررة . لم تنجح - في اغتياله ماديًا بالقتل منذ ظهوره وبروزه على مسرح السياسة العربية والعالمية كواحد من أكبر زعماء حركة الثورة الوطنية .

قلت ذلك وقتها واكتفيت !

□ □ □

وكتيرا ما سئلت ، حتى من قبل أن تبدأ الحملة على عبد الناصر وتتصاعد : لماذا لا أكتب قصته وقد كنت أقرب الناس فكرا إليه ؟ وكان ردّي دائمًا :

- مازال الوقت مبكراً بعد ، ومازالت رؤيتي مشوبة بالعاطفة . . وأريد أن أنتظر سنوات لكي أستطيع أن أقدم شهادة متكاملة للتاريخ .

وعندما بدأت الحملة وتتصاعدت ضد جمال عبد الناصر كان السؤال الملح هو :

- إذا لم تكتب الآن فمتى تكتب ؟ وإلى متى وألسنةسوء وحدها مطلقة العنان ؟
وكان ردّي دائمًا :

- إذا أردت أن أكتب فلا ينبغي أن يكون ما أكتب في مجال الدفاع عن جمال

عبد الناصر ، فهو لا يحتاج مني - أو من غيري - إلى دفاع عنه ، ثم إنني أريد ، إذا كتبت ، أن أضع أمام الناس صورة متكاملة للتجربة كلها : الضوء والظل ، النجاح والفشل ، الأصيل والدخيل في كل ما جرى وكان . وخشيتى من الكتابة الآن أن القوى الظاهرة على السطح هى قوى الثورة المضادة ، ومع إيمانى بأن أى تقييم نزيف التجربة عبد الناصر سوف يعطيه أكبر كثيراً مما يأخذ منه . فلن قوى الثورة المضادة الظاهرة على السطح الآن تستطيع التركيز على الجوانب السلبية لكي تضرب بها الجوانب الإيجابية الضخمة ، ومن ثم تطمس بذلك وجه الحق في التجربة كلها ، وتصبح شهادة التاريخ مطية للأحقاد وأداة من أدوات المخطط المرسوم - بصرف النظر عن توايا الشهود وحسن قصدتهم ! .

وعندما استبيح التاريخ ، وخرج من النسيان عشرات من رواة الحكايات عن عصر عبد الناصر - سمعت كثيرين يسألوننى :

- كل هؤلاء تكلموا ، وبعضهم دعم روایته بثقة شاهد العيان ، وأنت متى تتكلّم ؟

وكان ردّي دائماً :

- دعوا الكلام لمن يريد الكلام .

ولو أصغينا جيداً لوجدنا المتكلمين يرددون في الواقع عن أنفسهم وليس عن عبد الناصر .. بعضهم يبحث لنفسه عن تاريخ في الماضي وبعضهم يبحث عن دور في الحاضر .

ثم إن الروايات كلها قائمة من النسيان ، وإلى النسيان تذهب .

الاختلاف واضح في كثير منها ، حتى إن بعض الذين قابلوا جمال عبد الناصر لدقائق ينسبون إليه - بخيالهم - أحاديث تستغرق أيامًا بعد أيام .
والروايات معظمها مختلط متضارب .

بل أكثر من ذلك ، ولو صدق الناس كل ما يروى لكان تصديقهم شهادة لجمال عبد الناصر وليس شهادة عليه . فإذا كانت كل هذه الروايات تمثل « عقول » هؤلاء جميعاً . إذن فلقد كان الرجل فعلًا معجزة زمانه . إذ كيف تستنى له أن يحقق كل ما حقق ومثل هؤلاء جميعاً من حوله ! ؟

لم يكونوا معه في إيجابياته كلها وبشهاداتهم .

ولم يتجرسوا جميعاً على سلبياته حتى جاء الموت ومنهم الحرية ، وهذا شيء مسيء ، وأمسوا منه أنهم ظلوا من ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ إلى بداية سنة ١٩٧٤ يتمسحون بذكرى الرحيل والرحيل كأنهم لا يصدقون المقادير . ثم بعد أربع سنوات كاملة أطماّنوا فيها إلى أن الجسد المكفن بالثوب الأبيض لن يخرج من قبره . فتحوا أفواههم وتكلموا .

وتجاوز الكلام كل حد معقول . وكان آخره اتهام جمال عبد الناصر بأنه اختلس لنفسه وهرب إلى الخارج لحسابه مبلغ خمسة عشر مليونا من الدولارات : خمسة منها قدمها الملك سعود تبرعاً للمجهود الحربي المصري ، والعشرة الباقية قدمها الملك سعود أيضاً فرضاً لمصر ، ولكن جمال عبد الناصر اغتصب هذا كله لمنفعته الشخصية وأودع الأموال في حسابٍ باسمه في الخارج . هكذا ! أكثر من ذلك فإن جمال عبد الناصر أقدم على هذا التصرف في وقت محنّة عربية كبيرة ، وهي تلك الأيام السوداء من يونيو سنة ١٩٦٧ . هكذا أيضاً !

ومع أن هذه القذيفة من السموم طاشت وأخطأت هدفها ووفعت على الأرض وانكشفت شحنتها السوداء ، إلا أن المسألة ما زالت تحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير ، ثم إنها تشير عديداً من الأمثلة الحائزة :

كأن المصادرات أرادت أن تجيب بالصدق على هذه الأسئلة الأخيرة : لماذا ؟ وما هو الهدف ؟ ولحساب من ؟ .

○ ماذا إذا لم تكن غضبة جماهير الشعب في مصر وفي العالم العربي على هذا النحو الذي كانت عليه مما استوجب البحث عن الحقيقة وإظهارها في ساعات قليلة؟

○ ماذا إذا لم يكن ثلاثة من أبرز شخصيات مصر ، عاصروا موضوع تبرع الملك سعود بخمسة ملايين دولار وإقراضه لمصر عشرة ملايين أخرى ، وقد عاشوا التفصيلات كلها مازالوا قادرين على الكلام ، وهم يعرفون أن هذه المبالغ جاءت في النور ووضعت في البنوك التي كانت مرصودة لها : وضع مبلغ التبرعات في حساب خاص بالتبرعات في بنك مصر مفتوح باسم رئيس الجمهورية وانتقل من جمال عبد الناصر إلى أنور السادات حين ولى المنصب . ثم إن مبلغ القرض جرى تحصيله باسم البنك المركزي المصري ودخل في حساباته ، والثلاثة هم : حسن عباس زكي وعبد العزيز حجازي وهما وزيران وقتها لل الاقتصاد والخزانة ، وأحمد زندو المحافظ الحالى للبنك المركبى ؟

● مادا لو لم تكن الوثائق في متناول يد أحمد زندو محافظ البنك المركزي ، وكان الرجل يملك الشجاعة الكافية لينقدم رغم الجو الخانق ويقول بأمانة :

• حرام هذا الذي يفترى به . وهذه هي الوثائق تتطق بالحقيقة ! ؟

● مادا إذا لم يشعر رجل مثل ممدوح سالم بحسه ومسؤوليته أن إخفاء الحقيقة أو تمويهها يمكن أن يؤدي إلى عواقب خطيرة داخل البلد تؤثر في أمنه ؟

● ماذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا كُلُّهُ ؟

وهل كان الاتهام يظل معلقاً على سمعة عبد الناصر؟
وما هو الهدف؟ ولحساب من؟

□ □ □

في نفس الأسبوع الذي ثارت فيه هذه الزوبعة المثقلة بالسموم ضد جمال عبد الناصر حملت وكالات الأنباء العالمية قصتين إخباريتين مصدرهما واشنطن :

القصة الإخبارية الأولى كتبها ، دونالد روثيرج ، أحد مراسلى وكالة ، الاسوشيتيدرس ، في العاصمة الأمريكية ونصها كما يلى :

أعلن ، جون ماركس ، أحد مؤلفى كتاب ، عبادة المخابرات ، أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية حاولت ثلاثة مرات فى أواخر الخمسينيات اغتيال جمال عبد الناصر .

وقد رتبت المخابرات الأمريكية فعلاً ثلاثة فرق لاغتيال تقوم بهذه المهمة ، ولكنها لم تنجح . فقد قبض على إحداها ، وعجزت الأخرى عن تنفيذ المهمة ، كما أن الثالثة وهى مكونة من عرب فى خدمة المخابرات الأمريكية لم تبلغ بما حدث لها بعد أن وصلت فعلاً إلى مصر .

وقال ، جون ماركمن ، إن التخطيط لمحاولات اغتيال جمال عبد الناصر بدأ فى اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى كان يحضره ، جون فوستر دالاس ، وزير الخارجية الأمريكية الأسبق ، وكان يحضره أيضاً شقيقه ، آلان دالاس ، الذى كان فى ذلك الوقت يشغل منصب مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

وحدث أن عرض فى هذا الاجتماع تقرير عن الأضرار التى تسببها سياسات جمال عبد الناصر لمصالح الولايات المتحدة فى المنطقة ، وقال جون فوستر دالاس :

ـ لا تستطع المخابرات ، تصفيه ، هذه المشكلة ؟ .

واعتبر آلان دالاس أن هذه العبارة تكليف رسمي بتصفية جمال عبد الناصر ، وبدأ الترتيب لاغتياله .

هذا ما نقلته وكالة ، الاسوشيتيدرس ، على لسان ، جون ماركمن ، .

ولكى يوضع هذا الكلام فى حجمه资料ى فلا بد أن نذكر أن ، جون ماركس ، بدأ حياته دبلوماسياً فى وزارة الخارجية الأمريكية ، ثم عمل فى سكرتارية ، اللجنة الخاصة للتنسيق المشترك ، بين وزارة الخارجية الأمريكية ووكالة المخابرات المركزية ، وهى اللجنة التى تعرض وتناقض وتقر كل جوانب النشاط الخفى للولايات المتحدة فى المجال الخارجى . ثم انتقل بعد ذلك إلى خدمة المخابرات ، وكلف بمهام فى ، فيتنام ، فى إطار ، مشروع التهدئة ، الذى كان يتولاه فى ذلك الوقت ، ويلIAM كولبى ، مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فيما بعد ، وحتى شهر واحد مضى ، و ، مشروع التهدئة ، فى فيتنام - لمجرد التذكرة أيضاً . هو المشروع الذى جرت بمقتضاه تصفيه كل الزعماء الحاليين والمحتملين فى الريف الفيتنامى . وبشهادة ، كولبى ، نفسه فإن جهاز ، التهدئة ، بإشرافه تمكן من اغتيال قرابة خمسة وعشرين ألف شخص فى ، فيتنام الجنوبية ، على مدى أربع سنوات مارس فيها نشاطه ! .

وفي « فيتنام » بدأ ضمير « جون ماركس » يتحرك رغم نصائح قدمها إليه كثيرون من زملائه ، ملخصها على حد تعبيره هو « لا تكن مثالياً وعليك أن تعيش الدنيا كما هي في الواقع ». لكن ضمير « جون ماركس » تمرد في النهاية ، فإذا هو يستقيل من الوكالة ، وإذا هو يتفق مع زميل له هو « فيكتور مارشيني » على فضح أسرار المخابرات الأمريكية في كتابهما الذي اشتهر فيما بعد وهو « عبادة المخابرات ». وربما تبرز أهمية هذا الكتاب وخطورته ما فيه من معلومات إذا تذكرنا أنه كان الكتاب الوحيد الذي خضع لرقابة صحفية بحكم محكمة فيدرالية في الولايات المتحدة الأمريكية . فلقد رفعت إدارة المخابرات المركزية قضية على المؤلفين تتهمهما فيها بأنهما أخلاً « بتعهد السرية » الذي وقعه كل منهما أثناء عمله في خدمة الوكالة وأفشاوا أسراراً كثيرة يمكن أن تضر بأمن الولايات المتحدة في كتابهما . وبالفعل فإن المحكمة بناء على ما طلبته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أمرت بحذف ٣٣٩ فقرة من كتابهما . ولقد قرر المؤلفان أن يتركا الفقرات المحذوفة بيضاء في كتابهما ، ولعله الكتاب الوحيد الذي صدر على هذا النحو أخيراً في العالم كله ، ويلحظ قارئه أن معظم الأجزاء المحذوفة تتصل موضوعاتها بنشاط وكالة المخابرات المركزية في الشرق الأوسط .

هكذا إذن وبشهادة خبير عارف بما يقول . . . حاولوا تصفيه جمال عبد الناصر كإنسان باختياله . . . تماماً كما فعلوا مع « سلفادور أليندي » في « شيلي » ومع « باتريس لومومبا » في « الكونجو » .

□ □ □

نجى إلى القصة الإخبارية الثانية وهي تتعلق بتقرير رسمي أذيع من واشنطن عن تحقيقات لجنة السناتور « تشرش » في نشاط وجرائم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . وكانت جريدة « نيويورك تيمز » بين الوسائل الصحفية التي نقلت كثيراً من تفاصيله .

يتحدث التقرير في جزء منه عن الأساليب التي اتخذتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في مجال توجيه الرأي العام في العالم منذ بذلت نشاطها أثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم « وكالة الخدمات الخاصة » ، ثم تحولت بعد ذلك بقانون أصدره الرئيس الأميركي « هاري ترومان » إلى « وكالة المخابرات المركزية الأمريكية » .

ويرسم التقرير صورة عجيبة لنواحي النشاط التي لجأت إليها المخابرات المركزية الأمريكية في مجالات الصحافة والنشر والإعلام بصفة عامة لكي تضمن تحقيق أغراضها :

● من ذلك مثلاً أن الوكالة أنشأت من وراء ستار دوراً صحفياً في العديد من بلدان العالم الثالث . وكان تمويل هذه الدور كله من مصادر الوكالة . كما أن هناك دوراً آخر ساعدت الوكالة على إنشائها ولم تطلب من أصحابها شيئاً محدداً بالذات ، ولكن مجرد ربط مصالحهم بالوكالة حق « تكيف » اتجاهاتهم مع أغراض هذه الوكالة ، على حد نص تعبير التقرير .

- وأنشأت الوكالة أو ساعدت على إنشاء وكالات أنباء وصور نشطت وراء جمع الأخبار والصور بطريقة عادلة ، ولكنها التوت قليلاً بالنشر بما يكفل إعطاء انطباعات معينة تريدها الوكالة ، أو تلاعبت بنقط التركيز فيما تنشره وتوزعه لكي تؤكد هذه الانطباعات .
- وأنشأت الوكالة قسماً خاصاً لترزيف الكتب ، ويشير التقرير إلى أن الكتاب الذي روجت له الدعايات قبل سنوات تحت عنوان « أوراق نيكوفسكي » والذي قيل في ذلك الوقت إنه اعترافات جاسوسن للإتحاد السوفييتي يكشف فيها أسرار ودخول النظام السوفييتي - إنما هو في الواقع الأمر من صنع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتأليفها .
- ثم أنشأت الوكالة قسماً خاصاً للتشويه الإلخارى MISINFORMATION كانت مهمته صنع قصص إخبارية تخترع بالتلقيق - ! - حكايات يكون من شأن إذاعتها تشويه حقائق معينة أو تشويه سمعة أشخاص بعينهم يتصدون للسياسة الأمريكية أو يعارضون مقاصدها .

ويعرض التقرير بالتفصيل للأدوات التي تستعملها أجهزة المخابرات الأمريكية في عمليات التشويه عن طريق زرع الأخبار والقصص بحيث يبدو مظهرها بريئاً يساعد أكثر على تحقيق ما هو مقصود منها . وبضرب التقرير مثلاً على ذلك فيقول إن المخابرات تنجح في أن تدمّر خبراً صغيراً ملغوماً على جريدة غير مشهورة في بانكوك - عاصمة تايلاند - ثم تلفت إليه بطريق غير مباشر أنظار جريدة أخرى أكثر منها شهرة في هونج كونج ، ومن هونج كونج يعثر مندوب لإحدى وكالات الأنباء العالمية على الخبر فيضعه على أسلاك وكالاته ويكتسب من اسمها قوة تصديق ينسى الناس بها بدايته المتواضعة في بانكوك ، وهكذا يلف الدنيا ويصبح على كل لسان منسوباً إلى وكالة الأنباء العالمية . ويلفت النظر أنه عند التعرض لمناقشة هذا الجزء من التقرير أمام لجنة مجلس الشيوخ الأمريكي أن بعض أعضائها أثاروا نقطة فرعية : إن مثل هذه الأخبار المزروعة والملغومة بقصد التشويش أو يقصد التشويه سوف تصل إلى الولايات المتحدة وإلى شعبها ضمن رحلتها البرقية عبر الكرة الأرضية . . وهذا معناه أن المخابرات الأمريكية لا تضل الرأي العام العالمي فحسب وإنما هي تضل الرأي العام الأمريكي الذي تصل « مصنوعات » المخابرات الأمريكية إليه ضمن من تصل إليهم في بقية أرجاء العالم ، واعترف « كولبي » مدير المخابرات الأمريكية أن هذا الاحتمال - احتمال تضليل الرأي العام الأمريكي ذاته - احتمال وارد ولكن المخابرات الأمريكية تحذر قدر الإمكان ، وتجتهد أن تقل تأثير مثل ذلك على الرأي العام الأمريكي . .

وأشار التقرير أيضاً إلى أن المخابرات الأمريكية زوّدت بعض السياسيين في العالم بمعلومات وحكايات ووثائق تخدم أغراضها ، وبعض هؤلاء السياسيين لم يكونوا يعرفون المصدر الحقيقي الذي جاءتهم منه هذه المعلومات والحكايات والوثائق ، فقد كانت في الغالب تصلهم عن طريق

مصدر تبدو براءته وتحاطط عملية تسليمهم بأجواء مسرحية تقعمهم أن ما حصلوا عليه أسراراً بعيدة العناصر على غيرهم ، ويراعى أن يكون ما يتسلمه هؤلاء السياسيون متلقاً مع أهوانهم ومثاراتهم بحيث تصبح شهوة إذاعته . حتى قبل التحقق منه . حارقة غير قادرة على الانتظار . وعلى فرض أن المعلومات والحكايات والوثائق ظهر كذبها وادعاؤها فإن بعض الطنين يبقى في الأذان ،

□ □ □

وأعود إلى الحرب المستمرة على جمال عبد الناصر :

- حاولوا قتله وقتل سياساته ماديًّا ، وحاولوا ثلاثة مرات يعترف بها جون ماركس في شهادته ، ومن يعرف كم من المحاولات جرت ولم يعرفها ، جون ماركس ، ولم يعترف بها ؟
- ويحاولون الآن اغتيال ذكراه وتاريخه معنوياً وبالتشويه والتلشويف ، ورغم مضي قرابة ست سنوات على الرحيل فإن الحرب الشاملة ضده تزداد حدة وتتصاعد مع كل يوم .

الحادي
الثاني

مجموعة القسم الاجتماعي
لدى جمال عبد الناصر

لست في صدد الدفاع عن جمال عبد الناصر ، فالرجل بما أعطته له جماهير هذه الأمة ، وبعما كانه التي لا زالت موضع تقديرها ، في غنى عن دفاعي أو دفاع غيري عنه . ولعلني لا أتجاوز إذا قلت إنني واحد من الذين لا يعطون لأحد شرف تبرئته قبل أن يعطوا لأحد حقاته .

وبالتالي فإنني لست هنا بقصد تنفيذ حكایة الخمسة عشر مليوناً من الدولارات التي تبرع بها الملك سعود أو أقرضها لمصر ولمجهودها الحربي سنة ١٩٦٧ - والتي قيل إن جمال عبد الناصر أخذها لنفسه ووضعها في حساب له في الخارج . . .

ومهما يكن فقد تكفلت لجنة التحقيق الخاصة التي شكلت تحت ضغط شعبى غاضب فى مصر باظهار الحقيقة فيها ، وأبرزت من وثائق الدولة الرسمية ومؤسساتها المصرفية ما أثبت بغير شك ولا لبس أن تبرع الملك سعود بخمسة ملايين دولار ظل موجوداً فى حساب التبرعات التى يشرف رئيس الجمهورية على توجيه صرفها ، وأن الحساب كله انتقل من إشراف جمال عبد الناصر بوصفه رئيساً للجمهورية إلى إشراف أتور السادات حينما ولى المسؤولية بعده ، ثم إن الملايين العشرة من الدولارات التي قدمها الملك فرضاً لمصر فى ذلك الوقت ، جرى توقيع الاتفاق بشأنها وجرى التصرف فيها بواسطة وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية ووزارة الخزانة والبنك المركزى المصرى ، وإنها دخلت ميزانية الدولة وتحركت فى كل مراحلها من القبض إلى الصرف فى إطار مطالب الدولة وبواسطة أجهزتها الرسمية المتخصصة .

ومع ذلك فلن الموضوع مازال يغرينى بمناقشته ، ولكن من زاوية أخرى .

الزاوية ، البوليسية ، فى القصة . إذا جاز ذلك التعبير . تكفلت بها لجنة التحقيق الخاصة وجلت من تفاصيلها ما كانت حملة التشويه تحاول طمسه .

□ □ □

والزاوية التي تغرينى - كما قلت - هي الزاوية الاجتماعية . . أقصد سلوك عبد الناصر أو سلوك أي إنسان غيره على ضوء مجموعة القيم التي آمن بها ، والتي طبعت نمط حياته ، واتجاهاته سياساته وتصرفاته اليومية .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : هل كانت الثروة أو كان الغنى بين مجموعة القيم الاجتماعية التي آمن بها عبد الناصر ؟ ومن هذا السؤال تبرز أسئلة فرعية عديدة :

● ● لمن انحاز جمال عبد الناصر اجتماعيا . . هل كان انجذابه للأغنياء أو كان انجذابه للفقراء ؟ . .

إن أعدى أعداء جمال عبد الناصر لا يكفون عن اتهامه بالحقد على الأغنياء ، ويعزون كثيراً من سياساته إلى هذا الحقد الذي يتصورونه .

ولم يكن جمال عبد الناصر حادفاً ، ولكنه كان يرى الغنى الفاحش في وسط الفقر المدقع جريمة لا تغفر ، وهكذا جعل هدفه الذي لا يحيد عنه تذويب الفوارق بين الطبقات ، ولو أنه وجد نفسه من الأغنياء . أو أوجده مطامعه . بينهم - لاختلاف تصرفاته ، ذلك أن كل إنسان حريص على مصالح الطبقة التي ينتمي إليها ، أو حتى تلك التي يتطلع يوماً للإنتماء إليها .

أى أن الذي يريد الثروة لنفسه يؤمن الثروة لغيره !

والذي يسعى إلى توسيع ملكيته الخاصة . وذلك أساس أي غنى - لا يسمح لنفسه أن يبتدع مبدأ التعرض للملكية الخاصة أو المساس بحقوقها .

وإذا كان جمال عبد الناصر قد تعرض لأموال الأغنياء لصالح الفقراء ، وإذا كان قد تعرض لملكية من يملكون لصالح الذين لا يملكون . إذن فإننا نستطيع أن نتصور ببساطة أن جمع الثروة والحرص على الملكية التي تترافق فيها الثروة ، لم يكونا بين مجموعة القيم الاجتماعية التي آمن بها في حياته أو لحياته .

ولقد كان بين المعايير البارزة التي ألزم نفسه بها أن لا يملك أرضاً أو عقاراً ، وكان يعتقد . واعتقاده صحيح - أن الملكية هي التجسيد العملى للإمتياز الطبقي . ولم يكن ضد الملكية كمدأ ولكنه كان ضد تجاوز الحدود فيها في مجتمع أغلبيته الساحقة من المعدمين . وكان رأيه أن الحكم في مصر لا يجوز له أن يمتلك لأنه بذلك يفقد قدرته على التعبير عن مصالح الأغلبية ويجد نفسه - مهما حسنت نواياه . يعبر عن مصالح الأقلية .

● ● هل كان نمط حياته يزيد عن موارده ، وهل كان مضطراً إلى أن يجارى مستويات من المعيشة يراها من حوله متوففة ناعمة ، ومجاراته لها تفرض عليه أن يبحث لنفسه عن مصادر أخرى لتمويل العجز ؟

لم تكن للرجل - وهذه حقيقة عرفها كل الذين خالطوه في مصر أو في العالم العربي أو في الدنيا الواسعة كلها - شهوة في طعام أو شراب .

وكان أفسر الطعام عنده على حد تعبيره ، لحماً وأرزًا وخضاراً ، و ، ماذا يأكل الناس غير ذلك ؟ ، كان تساءلته ذلك مشوبًا بالدهشة والاستغراب حينما كنت أقول له في بعض المرات مداعبًا ، إن الدنيا تقدمت ومع التقدم تطور المطبخ ولم يعد الطعام وسيلة للتشبع ولكنه أصبح فنا من فنون الحياة ، وكان ذلك في رأيه تجديفًا يكاد أن يقترب من الكفر بنعمة الله ۱

وكان نهاره وليله عملاً متواصلاً ، وكانت لمسة الترف في نهاره حينما يجلس للعمل في مكتبه تسجيلاً لأغنية من أغاني أم كلثوم يدور وراءه خافتًا في خلفية جو عمله ، وكانت لمسة الترف في الليل ذهابه إلى قاعة السينما في بيته يشاهد فيلماً أو فيلمين قبل أن يأوي إلى فراشه .

وكانت مقاطعته للحياة الاجتماعية في القاهرة مشهورة ، وأنذكر أنتي ناقشه في عزلته كثيرة وكان رده :

- إلى أين أذهب ؟ ومع من أختلط ؟ إن الذين يستطيعون دعوة رئيس الجمهورية هم القادرون وهم يعرفون وأنا أعرف أن أفكارى تختلف عن أفكارهم ، فلماذا أعدبهم وأعذب نفسي ؟ ۲

• • هل كان يريد ثروة يؤمن بها شيخوخته ؟

الغريب أن جمال عبد الناصر كان يعرف أنه لن يعيش طويلاً ، ولربما من هذه النقطة يستطيع عدد من الباحثين أن يعثروا على السبب الحقيقى الذى دفع جمال عبد الناصر إلى محاولة تحقيق أكثر الكثير من المنجزات فى أقل القليل من فسحة الزمن .

وأنذكر أول مرة سمعته فيها يعبر عن هذا الشعور .

كنت أقول له ونحن نعيش أزمة من الأزمات الكبرى التى كان يعبرها واحدة بعد واحدة :
ـ ، هل ستتاح لنا الفرصة يوماً لكي نجلس ونكتب معاً قصة ما حدث وحقيقة ربما عندما تصل إلى سن الشيخوخة ولا تعود هناك مهام أو مشاكل ، تتاح لنا هذه الفرصة .
ـ نجلس معاً لنكتب القصة كلها ، .

وقال هو ببساطة :

ـ ، سوف تكتبها وحدك فما أظن أن العمر سيصل بي إلى مرحلة الشيخوخة ! ،

وقلت له :

ـ ، لماذا تقول ذلك ؟ ،

وكان رده :

.. لنكن عمليين . . . الذى يعيش نوع الحياة التى أعيشها ليس له أن يتلذذ بالشيخوخة
ولا كان ، يخرف ، . . .

□

● ● هل كان يريد ثروة يؤمن بها حياة أولاده بعد حياته ؟

كان ذلك أمراً لم يخطر على بال عبد الناصر . . . بل العكس ، ذلك أنه كان يعتقد اعتقاداً
جازماً لم يخالفه فيه شك أن أسرته لن تحتاج شيئاً من بعده ، واذكر - والله شاهد - مرة تحدثنا
فيها عن أولاده ومستقبلهم وكان قوله ، [تنى أعرف الناس فى بلدنا وأعرف طيبة قلوبهم ،
وأعرف أنهم بعدى سوف يضعون أولادى فى عيونهم] .

وعندما رحل جمال عبد الناصر كان كل ما تركه من حطام الدنيا قرابة أربعة
آلاف جنيه ، ألفاً وخمسمائة منها قيمة بوليصة تأمين على حياته عقدها قبل ذهابه
إلى حرب فلسطين ، ثم حساباً في بنك مصر باسمه شخصياً كان رصيده حوالي ألفين
وأربعمائة جنيه ، وفي مقابل ذلك كان مديناً بحوالي ستة وعشرين ألف جنيه بقيت
عليه من تكاليف بناء بيتيين . . . بيت لكل واحدة من بناته تسكن فيه عند زواجهما ،
وكانت تلك مسألة تردد فيها طويلاً ثم أقدم عليها أخيراً مدفوعاً بعاطفة غلبة لا ترد
فقد كان يحس بتقصيره في الوقت الذى يعطيه لأسرته وكان يريد لهم أحياناً أن يعرفوا
أن انشغاله عنهم خارج إرانته وأن عليهم مثله أن يتقبلوا مقاديرهم .

وأريد هنا أن أمس نقطة بالغة الأهمية ، تلك هي أن أسرة عبد الناصر - بناته وأبناؤه
بالذات - يمكن أن يحسبوا عليه حتى مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، وأما بعد ذلك فحساب
كل واحد منهم على نفسه .

ويوم رحل جمال عبد الناصر كانت ابنته الكبرى هدى تعمل في سكرتариته بمرتب قدره ستة
وثلاثون جنيهاً ، وكان قرينهما حاتم صادق يعمل معى في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية
بالأهرام بمرتب قدره مائة جنيه ، وكان قبل ذلك في سكرتارية رئاسة الجمهورية .

وكانت ابنته الثانية منى تعمل معى أيضاً في دار المعارف المملوكة للأهرام بمرتب قدره ثلاثون
جنيهاً ، وكان زوجها أشرف مروان يعمل في سكرتارية الرئيس للمعلومات موظفاً في الدرجة
ال السادسة بمرتب قدره الثان وثلاثون جنيهاً في الشهر .

وقد يسأل سائل : لماذا كان عملهم معه . . . أو معى ؟
وأسمح لنفسي أن أشرح السبب لأول مرة .

حينما تخرجت ابنته هدى وتخرج معها في نفس السنة قرينهما حاتم صادق من كلية الاقتصاد
والعلوم السياسية بجامعة القاهرة كان جمال عبد الناصر في خيرة شديدة ، وأنذكه يومها يقول لى :
. لا أعرف ماذا يفعل حاتم وهدى ، لا بد لهما بالطبع أن يعملا ، ولا أستطيع أن أكلم

وزيراً أو رئيساً لمؤسسة لكن يلحقهما بعمل عنده . . . ولو تركتهما للظروف الطبيعية فإنه
أعلم أن كثيرين سوف يتسبّبون عليهم وهذه مفسدة لهما في هذه السن . .

، هل تستطيع أن تأخذها معك في الأهرام . . . معك أستطيع أن أتكلم بغير حرج وعندك أعرف أللهم لن يجاملا ، فإنك بصداقتك لى لست في حاجة إلى استغلالهما زلفى أو تقريبا ،

- (لن أعرف الإثنين . . . وبالفعل أريدهما معى فى مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية أقوم بتأسيسه الآن) .

وبعد يومين اثنين من هذا الحديث ، قال لي وبطريقة عابرة وسط حديث طويل على التليفون :
- لا تذكر في موضوع حاتم وهدى . . . لقد وجدت الأسلم أن أعينهما هنا في الرئاسة
حيث أستطيع أن أضمن ظروف العمل بما لا يفتح مجالاً لأى استغلال . .

ومضت شهور . . . ومضت سنة . . . ومضت مئتان وجائعى حاتم صادق يوماً وقد سمع عن خطط وخطوات إنشاء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ورغم أن يعلم فيه ، لأنه يشعر أنه فى مسكتارياة رئاسة الجمهورية لا يجد فرصة كافية لكي يتعلم ويجرب . ويخرص خبرة الحياة ،

وتحديث في الأمر مع جمال عبد الناصر في مرة من المرات ، وكان تعليقه : « إننى أعرف أن ظروف عمله هنا في الرئاسة لا تعطيه الفرصة لإظهار طاقته على العمل ، وإذا أردته معك فليكن ، ولكنك تعرف كيف أفك فى الموضوع » .

وحين تخرجت «منى» من الجامعة الأمريكية . وكانت قد دخلتها لأنها لم تحصل على مجموع كاف يؤهلها لدخول الجامعة المصرية . وجدت جمال عبد الناصر يطلبني على التليفون ليقول لي ذات صباح وهو يضحك :

- يظهر أننى سأقدم لك طلب استخدام لكتاب تأخذ منه ، فى أي عمل معك ، .
التحقت منى بقسم نشر كتب الأطفال فى دار المعارف .

ويعد الرحيل عرض الرئيس أنور السادات على «هدى» أن تواصل عملها معه في سكرتارية رئيس الجمهورية كما كانت مع أبيها، ولكنها أستأننته أن يسمح لها بالعمل في الأهرام، فبقاوها في الرئاسة أكثر مما تستطيع تحمله عاطفياً، وإنْ فإن أقرب شيء إلى الالتزام بمعايير أبيها هو أن تعمل معى، وفي هذه المرة كان الرئيس السادات هو الذي طلب مني عملاً لـ«هدى».

وفي ذلك الوقت كان أبناءه الثلاثة خالد وعبد الحميد وعبد الحكيم في سلك الدراسة : أولهم في كلية الهندسة والثاني في الكلية البحريّة والثالث في الثانوية .

هكذا كانت ظروف الكل وأحوالهم ، ولست أعرف إذا كان فيها استغلال سلطة من جانبه أو أنها كانت عزوفاً عن استغلال السلطة من رجل كان يملك أن يشير بطرف إصبعه فإذا الكل يتسابق ليعطى أحسن المناصب وأوسع الفرص لأبناء جمال عبد الناصر .

تلك كانت ظروف الكل وأحوالهم عندما رحل . . . وحسابه عنهم يتوقف عند تلك اللحظة من الزمان ، وأما بعدها فكل منهم مسؤول عن نفسه .

لكن الرجل ، وتلك أمانة أمام الناس والتاريخ ، لم يحاول تأمين حياة أولاده بعده ، بل تركهم واتقاً من طيبة قلوب الناس في بلدنا ، وأنهم بعده سوف يضعون أولاده في عيونهم !

□ □ □

هذه جوانب من تصرفات الرجل « كلينتون » ، وهي واضحة في تعبيّرها عن مجموعة القيم الاجتماعية التي يؤمن بها ، وعنها تصدر تصرفاته .

وننتقل منها إلى مجموعة أخرى من القيم الإنسانية تظهر في تصرفاته كمشتغل بالسياسة .
ننساء مثلًا :

« من الذي يضع الأموال السائلة الطائلة تحت تصرف أصدقائه : المعسكر الرأسمالي أو المعسكر الاشتراكي ? » .

لا يشك أحد في أن التعامل مع المعسكر الرأسمالي أقرب إلى تحقيق مزايا مالية لا شك فيها لمن يبحث عن ثروة تكون تحت تصرفه خفية وبغير أن يعرفها أحد .

ولا نذهب بعيداً ، ففي الوقت الذي نصور فيه الرئيس الأمريكي « دوليت أيزنهاور » ، أن النظام المصري بعد الثورة على استعداد لمسيرة السياسة الأمريكية ، بادر فوضيًّا تحت تصرف سلطة الدولة العليا في مصر ثلاثة ملايين دولار لكي تصرف مسراً في أي وجه تراه هذه السلطة ضروريًا لأمنها . وأحدث تقديم هذا المبلغ لسيطرة الدولة في مصر وقوتها ذهشة واكتفت به ظروف مثيرة ثم تقرر توجيه المبلغ إلى بناء برج القاهرة وشبكة مواصلات مع العالم فيه ، وأصبح برج القاهرة بعد هذه القصة رمزاً عالياً لسخافة السياسات الخفية للولايات المتحدة الأمريكية .

ولكن ذلك لم يوقف الأموال الضخمة المتداولة أو المستعدة للتدفق على كل من يتوافر لديه الاستعداد ليساير .

ولقد ساير كثيرون في الشرق الأوسط وخارجـه ، والقصص والروايات عن المبالغ الخرافية التي أصبحت توضع خفية تحت تصرف الذين يتوافر لديهم الاستعداد لمسيرة شائعة ذاته في دوائر لجان التحقيق في الكونجرس الأمريكي . وبينها مثلًا أن « الجنرال ثيو » رئيس فيتنام الجنوبية كان يحصل سراً كل سنة على مائة مليون دولار توضع تحت تصرفه بترتيب خاص بينه وبين الرئيس الأمريكي . بل وأقرب من ذلك إلينا مكاناً وزماناً فقد تسرّب قبل شهرين من

اعطاء زعماء الحزب الديمقراطي المسيحي في ايطاليا مبلغ ستة ملايين دولار في شهر ديسمبر الماضي وقد قدمت إليهم من اعتمادات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

ولم يكن جمال عبد الناصر قريباً من التعاون أو التواطؤ مع هؤلاء الذين يعطون المال بغير حساب ، ولو كان على استعداد ليساير لاختلف ما يحلم به وما لا يحلم به ولكن في هذه الأموال بغير حساب .

لكن اختياره الدولي . . . كان اختياراً مستقلاً بعيداً عن ذلك كله !

وتقابل مثلًا:

ما هي الأبواب التي ينفتح فيها باب الغنى على مصراعيه لمن يريد أن يعده إلى الثروة الملعونة؟

لا يختلف أحد في أن أوسع أبواب الغنى لمن يريد هو باب مشتريات السلاح ، وذلك بباب أغلاقه جمال عبد الناصر تماما ، فالحصول على السلاح من الاتحاد السوفييتي . مع أنه قرار سياسي بالدرجة الأولى . (لا أن بين آثاره الاجتماعية الكبرى أن باب الرشاوى والأرباح من تجارة السلاح الملعونة أصبح مسدودا لا سبيل إلى التفاذ منه .

هل يغلق رجل يبحث عن الثروة من أي طريق مثل هذا الباب وهو باب الملايين . . .
عشرات الملايين . . . مئات الملايين ؟ !

□ □ □

وتساءل مثلاً :

لعله أعد نفسه ليوم يضطر فيه إلى الهرب من موقف صعب ، وحينئذ يجد في مهريه ما يستطيع أن يعيش به ؟

ولكن ، هل كان ، الهرب ، في طبعه ؟

أعداؤه . قبل اصدقائه . يعترفون له بأنه كان مقاتلاً إلى النفس الأخير ، ولو كان من تصر همهم عن تحديات عصرهم لأعفى نفسه . دون حرج . من معارك بعد معارك فرضتها عليه أمال الأمة وكان يستطيع ببساطة أن يجعل أننا من طين وأننا من عجين ويصد عن سمعه صوت النداء .

لقد انتخب لرئاسة الجمهورية أول مرة في يونيو ١٩٥٦ ، وكان في استطاعته أن يعطي نفسه فرصة يتمتع فيها بمعزايـا المنصب وهي هائلة لمن يريد ، لكنه بعد أقل من شهرين كان في عين العاصفة بقراره تأميم قناة السويس .

وبعد حرب السويس كان أسطورة في العالم العربي ، فقد حقق للعرب أكبر وأجمل نصر حصلوا عليه في تاريخهم الحديث ، وواجه في ساحة القتال ثلاثة دول ، بينها اثنان من الدول

العظمى في زمانهما - بريطانيا وفرنسا - وصمد في الميدان رغم تباين القوى العسكرية ولم يستسلم ، ثم انطلق بالعمل السياسي من حيث توقف عسكريا ووصل إلى هدفه كاملا : قناة السويس تحت السيطرة المصرية ، والإنسحاب البريطاني الفرنسي من بور سعيد كامل ، والإنسحاب الإسرائيلي من سيناء كلها ومن قطاع غزة لم يوضع للمساومة .

وكان في استطاعته بعد السويس أن يعيش على ماضيه . . . ماضيه يكفيه ويصنع منه إسطورة لم تسبق ، ولا تلحق .

ومع ذلك لم تكن نهاية سنة ١٩٥٧ تجىء إلا وقوات من جيشه تنزل في اللاذقية لمشاركة مع الجيش السوري في الاستعداد لغزو سوريا كان يدبّره حلف بغداد .

هكذا وهكذا حياته من أول يوم حتى آخر يوم .

كان غيره معذوراً إذا استسلم أمام الإنذار البريطاني الفرنسي يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ وركب طائرة وهرب . . . لم يفعل وإنما قاتل .

وكان غيره معذوراً إذا خانته شجاعته الأدبية يوم الهزيمة في ٩ يونيو ١٩٦٧ فترك بيانه للأمة مسجلاً وركب طائرة وهرب . . . لم يفعل وإنما يبقى ليحمل ، المسؤولية كلها ، على حد تعبيه في خطاب ٩ يونيو ١٩٦٧ ، وكانت المفاجأة بالنسبة له كاملة حين طالبته الأمة من الخليج للمحيط بأن يبقى وأن يواصل قيادة المعركة المستمرة ، وبقى تحت شعار المراحل الثلاث : الصمود والردع والتحرير .

لم تجئ نهاية سنة ١٩٦٧ ، نفس سنة الهزيمة ، حتى كانت قدرة مصر الدفاعية قد استكملت .

في سنة ١٩٦٨ ، كان قادراً على الرد بمعارك المدفعية على جانبي القناة .

وفي سنة ١٩٦٩ ، والنصف الأول من سنة ١٩٧٠ ، كان يخوض حرب الاستنزاف التي يعتبرها المؤرخون العسكريون في الدنيا كلها جولة الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل .

وكانت عينه على الجولة الخامسة في الحرب العربية الإسرائيلية : جولة التحرير .

وكان يريد . . . ولرأت المقابر شيئاً آخر . . . وأغضض الموت عينيه مساء

٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ !

□ □ □

ونتساءل مثلاً :

ريما كان يريد من ثروة يكتسها في الخارج أن تتفق في يوم يضطر فيه إلى الحياة لا جنباً سياسياً خارج مصر ؟

لقد كان مثل هذا الاحتمال خارج حساباته ، وكانت له فلسفة واقعية غريبة في صراحتها ، وكان يقول :

ـ ليس لي مكان إلا واحداً من اثنين : هنا في مكتبي أعمل . . أو هناك راقداً في قبر . . . حتى السجن . لو حدث شيء . لن تطول إقامتي فيه ، فإنهم أذكى من أن يتركوني حياً . وكان يضيف :

■ ■ ■ أولاً : فإذا لا أحب مهنة اللاجئ السياسي .

■ ■ ■ وثانياً : قليس هناك بلد يقبلني لاجنا سياسياً لأنني سأكون ، مطلوباً ، بشدة من الأقوياء الذين حاربت نفوذهم في بلادنا .

■ ■ ■ وثالثاً : فلن هؤلاء الأقوياء سوف يطاردوني إلى آخر الأرض إلى آخر العمر .

□ □ □

وتساءل مثلاً :

هل كان في طبعه ، الاستسلام ، للأغنياء طمعاً في أن يجودوا عليه بفضل أموالهم . وهل كان رجلاً تهون عليه كرامته فيقبل مالاً من خصم قاتله في مبدأ وضغط عليه حتى تنازل عن عرضه ثم فتح له باب وطنه لاجنا تحت سلطانه : كالملك سعود ؟
لقد كان بين مشاكل عبد الناصر أنه رجل شديد الكبراء ، وكبرياوه وحدها كانت تكفيه عاصماً ضد مهانة الرشوة أو ذلك الإستجداء !

□ □ □

ولقد أردت أن أناقش الموضوع من زاوية مجموعة القيم التي أثرت في تصرفاته كإنسان : اجتماعياً أو سياسياً .

ولم أشاً أن أتعرض للناحية البوليسية في الموضوع .

ولم أشاً أن أسأل : ألم يجد وسيلة للثروة غير شبكات من الملك سعود مسحوبة على بنوك عالمية . . . ألم يجد طريقاً آخر غير اتفاقيات رسمية تعقدها وزارة الاقتصاد وينفذها البنك المركزي المصري ؟

ولم أشاً أن أسأل : ألم تكون تحت تصرفه خزائن مصر ؟ ألم تكون تحت أمره اعتمادات بغير حدود لأوجه من النشاط السياسي معفاة من أي رقابة ؟

ولم أشاً أن أسأل : لو أن له حساباً سرياً خارج مصر ، حتى لو لم يكن في هذا الحساب غير مليم واحد ، فهل كان أعداؤه وهم الأقوياء في هذه الدنيا . خصوصاً دنيا البنوك . عاجزين عن خزائنهما وعن أرقامها ؟

لم أشاً ذلك لأن هدفي لم يكن تبرئته من اتهام رموه به .

وقلت ومازالت أقول : إننى واحد من الذين لا يعطون لأحد شرف تبرئته قبل أن يعطوا لأحد حق اتهامه !

الحادي
الثاني

الحكم القائم في مصر الآن
واقضية عبد الناصر

أفهم تماماً لماذا تحاول بعض قوىسيطرة العالمية - ولأغراضها - أن تشوّه التجربة المصرية التي فادها جمال عبد الناصر ، ولكنني لا أستطيع أن أفهم - حقيقة - أسباب معايرة بعض عناصر النظام المصري الحاضر ، بل ومحاسبتها الزائدة أحياناً لتشويه هذه التجربة . . . وأريد الآن أن أناقش هذه المسألة ، وأريد أن أناقشها منطقياً بغير انفعال ، وبغير تعصب ، وبغير عاطفة !

□ □ □

أسأل نفسي والآخرين : كيف ولماذا ؟

وأطرح هذا السؤال ، وفي ذهني - وفي ذاكرة غيري - سياق متصل من الحقائق والمواضف ، سلسلة متراقبطة حلقاتها ، معندة من الأممن إلى اليوم وإلى الغد !

■ أولاً : لقد وقف الرئيسان أنور السادات أمام مجلمن الشعب قبل أقل من سنة وقال بالحرف : « إن الذين يتصورون أن الثورة ثورتان وأن العهد عهدان يقعون في خطأ كبير » . وهذا الكلام من الرئيس السادات واضح ، ثم إنه حقيقي إلى أبعد حد ، فلم يكن أنور السادات شخصاً عادياً في نظام عبد الناصر ، ويكتفى أن نذكر المسؤوليات والمناصب التي تو لاها من عضو في مجلس الثورة إلى رئيس لمجلمن الشعب إلى نائب لرئيس الجمهورية . . .

وكان كل رؤساء الوزارات الذين اختارهم أنور السادات في مدة ولايته وحتى الآن افطاباً في عهد عبد الناصر : محمود فرزى رئيس الوزراء قبل ١٥ مايو ١٩٧١ وبعد ذلك نهائية تلك السنة ، ثم عزيز صدقى من بداية ١٩٧٢ إلى منتصف ١٩٧٣ حين شاء الرئيس أنور السادات نفسه أن يتولى رئاسة الوزراء استعداداً للمعركة ، ثم عبد العزيز حجازى بعد حرب أكتوبر ومع محاولة التوجه للإنفتاح بعدها .

ولو نظرنا إلى قمم السلطات في الوضع الراهن كله لتأكدت لنا هذه الحقيقة :

● أنور السادات في رئاسة الدولة وهو الوحيد من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي بقى إلى جوار عبد الناصر وبالقرب منه من البداية إلى النهاية .

● سيد مرعي في رئاسة مجلس الشعب وقد كان في فمة الجهاز التنفيذي منذ أشرف على تطبيق قانون الإصلاح الزراعي سنة ١٩٥٢ حتى أصبح وزيراً للزراعة ونائباً لرئيس الوزراء ومسؤولاً عن التنمية الزراعية في مصر كلها إلى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وبعده .

● ممدوح سالم في رئاسة الوزارة وقد كان من نجوم جهاز الأمن في عهد عبد الناصر ، بل إنه لسنوات طويلة كان مسؤولاً عن أمن جمال عبد الناصر نفسه في كل رحلاته خارج مصر .

□ □ □

■ ثانياً ، إن أنور السادات لم يتوقف عن القول ، وبطريقة قاطعة ، بأنه مسؤول مع جمال عبد الناصر في كل قرار . ونم يكن أنور السادات ليقول بذلك ويقطع به لو أنه لم يكن صحيحاً . وفضلاً عن ذلك فلقد كان أنور السادات هو الرئاسة الثانية دستورياً في مصر بعد عبد الناصر بحكم رئاسته لمجلس الشعب معظم سنوات عهد عبد الناصر . وحين ترك رئاسة مجلس الشعب فقد ولّى بعدها منصب نائب رئيس الجمهورية وهو الرئاسة الثانية عملياً في أواخر عهد عبد الناصر ، وحين قدم أنور السادات نفسه إلى الأمة بعد عبد الناصر لرئاسة الجمهورية فلقد كانت أول كلمة قالها : « لقد جئت إليكم على طريق جمال عبد الناصر » .

وهذا كلام ليس فيه ما يحمل اللبس ، وأن يحاول بعض الناس تفسيره برأده إلى تمسك الرئيس السادات « بأخلاق القرية » ، فحججة واهية أن أن يعرف أصحابها أنها تمسك إلى أنور السادات قبل أن تمسك إلى جمال عبد الناصر !

كان أنور السادات مسؤولاً بالمارسة . . . أو كان مسؤولاً بالصمت . . . وقد رفض الرجل بشجاعة وأمانة حجة المسؤولية بالصمت وأعلن أنه اشترك مع جمال عبد الناصر في « رسم كل سياسة واتخاذ كل قرار » .

□ □ □

■ ثالثاً . ولربما يقال :

◀ نظام يريد أن يحاكم نفسه وأليس هذه آية الضمير الحي ؟ .
ولكن أي محاكمة لا بد لها من قانون ، ولا بد لها من قضاة ، ولا بد لها من شهود ، ولا بد لها من رأى عام يملك وسائل أن يتتابع ويراقب .

* تطورت الأمور بعد ذلك كثيراً وتجاوزت هذا الحد الذي بدا لي حين كتبت هذه الأحاديث سنة ١٩٧٥ .

وفي محاكمة نظام سياسي فإن ايجابياته يجب أن توضع ازاء سلبياته لكن يكون هناك ميزان ترجح فيه كفة وتخُف في كفة أخرى .

وهذا كلّه غير موجود فيما يجري الآن في مصر .

لا قانون ولا قضاة ولا شهود ، ولا رأى عام يملك وسائل المتابعة والمراقبة .

ثم إنه ليس هناك ميزان للسلبيات والإيجابيات . . .

كل ما يقال في مصر الآن ، وبغير ميزان ، لا تظهر منه غير السلبيات كثيبة كلها ومظلمة . . . عشرون سنة متصلة من الظلم والفساد !

ليكن . . .

ليكن إنها كانت كذلك كلها ، لم يتخلّها شعاع ضوء ، ولم تظهر خلالها موقف مجد وشرف . . .

ليكن ! . . .

لكن معنى القول بذلك هو إدانة النظام الذي حكم مصر منذ ٢٣ يونيو ١٩٥٢ إلى اليوم . . .

إدانة بالكامل . . . إدانة لا تستثنى أحداً ولا تبقى على شيء .

ولأنه يذهب النظام كله من أوله إلى آخره بلا أسف ولا أسى ، فالوطن والأمة أولى من أي نظام وأبقى من أي حكم .

ولقد أضيف إلى هذه النقطة ملاحظة أتساءل فيها :

◀ ومع ذلك فهل النظام هو الذي يحاكم نفسه بنفسه اليوم ويقوم بتجربة في النقد الذاتي . . . آية من آيات الضمير الحي ؟

أم أن الذين عادوه وعادهم - بصرف النظر عن الأسباب - هم الذين يحاكمونه الآن ويكتبون القانون وينصبون المحكمة ويجهلون بالشهود ويوجهون الإدعاء ؟

أليس مشهداً غريباً أن تقف الثورة متهمة أمام الثورة المضادة وأن يحدث ذلك

بغير انقلاب ؟

□ □ □

■ رابعاً - ولقد يعرض على أحدهم ويقول :

◀ «ذلك تطرف لا مبرر له ، وهو فقرة من النقيس إلى النقيس . . .

وهل نقبل ما كان في النظام كله على علاته لا تناقضه ، أو يكون البديل إسقاط النظام من أساسه بغیر مناقشة ؟ . . .

ولعل آخر آخر من يقول بذلك ، وشاهدى في ذلك ما كتبته في نقد ممارسات النظام في حياة

جمال عبد الناصر نفسه ، فلقد كتبت وأفضحت في الكلام عن تجاوزات وقعت في كثير من المجالات . . . ولخصت رأيي يوماً في نقد النظام بأنه « يعتمد أكثر مما يجب على سلطة الدولة في الداخل ، وأكثر مما يجب على قوة الدولة في الخارج » ، وما زال ذلك نقدي الأساسي لعهد جمال عبد الناصر ، وربما لم ينس الناس أن أول محاكمة ، لمراكز القوى في مصر » - وبهذا الوصف نفسه . جرت في عهد عبد الناصر ، ولعلني لا أتجاوز حدّي إذا قلت أننى المسؤول عن صك عبارة وردت في خطاب جمال عبد الناصر أمام مجلس الأمة الذي انتخب على أساس دستور سنة ١٩٦٤ - والذي رأسه أنور السادات - والتي كان نصّها « أن سيادة القانون لا بد لها أن تعلو على مراكز القوة » .

وإذن فإنّي آخر من ينكر حقّ وواجب أي نظام في تصحيح مساره .
ولكنّي أفرق بين التصحيح وبين الإدانة الكاملة والنهائية .
التصحيح ليس ثورة جديدة ، ولا هو ثورة مضادة .

ولكن التصحيح عملية إزالة شوائب لحقت بالعمل الوطني أثناء معارضته اليومية لعهده الأصيلة واستراتيجيته المتصلة .

وبالتالي فإنّها ليست بداية جديدة ، وإنما هي دفعة مضافة .
ومن هنا مثلاً فإنّي مع اعتراضي الشديد بالدور الذي قمّث به شخصياً إلى جانب أنور السادات في الأحداث التي وقعت في مصر خلال شهر مايو ١٩٧١ - لا أعتبر أن ١٥ مايو كان ثورة جديدة في مصر .

ولعلني واحد من الذين يرون الإصرار على اعتبار يوم ١٥ مايو بداية ثورة جديدة بدأ بها عهد أنور السادات ، ظلماً لأنور السادات وإساعته إليه قبل أن تكون الإساءة لغيره .
معنى ذلك ببساطة أنهم يأخذون من أنور السادات مجد منجزات شارك فيها ، وهي من أرصدة قوته ، ومن منجزات الثورة التي يحمل اليوم علمها .

معنى ذلك ببساطة أنهم يأخذون من رصيد أنور السادات أمجاد ٢٣ يوليو ، والإصلاح الزراعي ، وإعلان الجمهورية ، وكسر احتكار الملاحة ، وحركة مقاومة الأحلاف ، وحروب تصفية الإستعمار ، وتأميم قناة السويس ، وحرب السويس العظيمة نفسها ، والتصنيع ، والتحول الإشتراكي ، والتصدّي لمسؤولية الوحدة العربية ، وبناء السد العالي ، وقيادة حركة الثورة الوطنية وتيار عدم الإنحياز ، وإنشاء منظمة الوحدة الأفريقية ، وعودة بنرول العرب للعرب ، إلى آخره . . . إلى آخره .

ولقد مرّت أيام مثل يوم ١٥ مايو في حياة دول وشعوب غيرنا ، ولكنّها بقيت في نطاقها . . .
عملية تصحيح في مسار العمل الوطني لا أكثر ولا أقل .
وعلى سبيل المثال فإنّ مقوط « بريدا » في الاتحاد السوفييتي لم يكن بداية ثورة جديدة .

وسقوط « رانكوفيتش » في يوغوسلافيا لم يكن بداية ثورة جديدة . وأخيراً فإن سقوط « ويليام كولبي » مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وسقوط مسطوة المخابرات معه لم تحفز أحداً لكي يقترح على الرئيس « جيرالد فورد » أن يكون إخراج « كولبي » إعلاناً لقيام الجمهورية الأمريكية الثانية !

مراجعة التجربة إذن مطلوبة ، والتصحيح بعدها حق ، لكن التصحيح يبدأ من التسليم بأن القاعدة سليمة والإستراتيجية صحيحة ، ولكن التفاصيل تجاوزت أحياناً ، والممارسات شططت عن الطريق في بعض المرات . . . وإن وقفة . . . وإن عودة إلى الطريق .

لكن ما يحدث في مصر الآن ليس كذلك !

إنه إدانة كاملة ونهائية كما قلت . . .

ليست وقفة ولكنها محاولة اغتيال لكل ما كان .

وإذا كانت عودة فهي ليست عودة إلى الطريق ، ولكنها : عودة عن الطريق ، عودة إلى ما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ !

□ □ □

■ خامساً . ويقول بعضهم ، وذلك يقال فعلأً ؟

◀ لماذا نعد الأمور ، ولماذا نرى فيها ما ليس فيها ؟

لماذا لا ننسب ما نراه الآن في مصر إلى صحفية حصلت على حرفيتها أخيراً فشط بها القول من منطق التجربة والخطأ ؟

وكان مناي أن لا يستعمل الإدعاء بحرية الصحافة في هذا الصدد للأسباب التالية :

١ - إن الصحافة في مصر ما زالت مملوكة للاتحاد الإشتراكي . وهو بوضعه . سابقاً ولاحقاً لكي تكون منصفاً . جهاز من أجهزة السلطة في مصر .

٢ - إن القيادة السياسية مارست حقها . وهذا مشروع في الأوضاع الراهنة . وأجرت تغييرات شاملة في القيادات الصحفية اطمأنّت بها لوضع العناصر الأكثر تعبيراً عن سياساتها ووجهات نظرها على مفاتيح التوجيه العام في مصر .

٣ - إن القول بوجود حرية صحافة في مصر هو . عملياً . ضرب من الوهم أو الإيهام ، والدليل عليه قائم كل يوم في الصحافة المصرية .

وكل صحفي في مصر يعرف على سبيل المثال أن هناك مكتباً رسمياً يبلغ الصحف كل يوم بقائمة ما لا يجوز نشره .

وكان من الممنوعات في وقت من الأوقات نشر آية تفاصيل عن فضائح « ووترجيت » التي أدت إلى سقوط ريتشارد نيكسون ، ولم يسمح بالنشر في هذا المجال وفي أضيق نطاق إلا عندما بدا أن نهاية ريتشارد نيكسون محتملة .

وكان من الممنوعات . ولا يزال - نشر أى شيء عن تفاصيل التعهادات السرية التي
أعطتها الولايات المتحدة لإسرائيل ملحقة باتفاقية سيناء الأخيرة .

ولا أريد ثالثاً أن أخوض في عينات من الممنوعات الأخرى !
ولأن فلن هناك يبدأ تمتد بالحظر والإباحة .

ويبدو غريباً جداً في رأيي أن تكون هناك حصانة مقدمة لريتشارد نيكسون - وأن تكون هناك
استباحة كاملة لجمال عبد الناصر .

وأردت لنفسى عن أية تفاصيل أكثر من ذلك في مسألة حرية الصحافة في مصر والتعلل
بها في حملة التشويه والتشویش الجارية الآن في مصر .

ومع ذلك فلا أستطيع أن أترك هذه النقطة دون إشارة إلى ظاهرة من أهم الظواهر الصحية
في مصر المعاصرة .

ذلك أنه إذا كانت الصحافة العامة في مصر تشتراك - واعية أو ساهية - في اغتيال شخصية
جمال عبد الناصر - فإن هناك صحافة أخرى تخوض معركة ضارية وباسلة دفاعاً عنه . . .
دفاعاً عن المبادئ الأصلية في تجربته ، وتلك هي صحافة الشباب . . . جرائد الحائط المعلقة
بال門ات في أنحاء الجامعات المصرية ، إلى جانب الصحف التي تصدرها اتحادات الطلاب
أو جماعات الشباب .

وذلك شهادة لعبد الناصر .

رواسب الماضي تحاربه ، وطلع المستقبل تحارب معه !

□ □ □

■ سادساً . ومع ذلك فلن صدقنا ما يقال عن « انفلات » الصحافة العامة في مصر ، فهل
الحملة ضد عبد الناصر - حملة الإدانة الكاملة والنهائية - قاصرة على هذا النطاق ؟
الحملة أوسع وفيها ما ينفت النظر .

فيها خطابات رسمية تلقى في مناسبات عامة وهي الأخرى إدانة كاملة ونهائية .
فيها مطبوعات ونشرات صادرة عن أجهزة رسمية للدولة وهي الأخرى إدانة كاملة .
فيها إذاعات مسموعة وإذاعات مرئية وأفلام سينمائية لا تفعل كلها غير تكرير إدانة
التجربة من أولها إلى آخرها وبطريقة ساحقة ماحقة !

الخص آرائي في النهاية لكن لا يكون هناك لبس :

1 - في تجربة عبد الناصر كثير يستحق النقد ويستوجب التصحيح ، شأنها في ذلك
شأن أي تجربة إنسانية ضخمة وهائلة ، والفرز ضروري ، والتقويم حق ، والتصحيح
واجب .

٢ - لقد ناديت ، وما زلت أتادي بضرورة التحقيق النزيه في كل جوانب التجربة حتى يظهر وجه الحقيقة ، وقلت وما زلت أقول إن إطلاق النهم بغية تحقيق لن يؤثر في عبد الناصر بقدر ما يؤثر في وجдан الشعب المصري لأنه يفقد الثقة في كل شيء ، وليس هناك كائن حتى . . . فرداً كان أو شعباً . . . يستطيع أن يعيش ويكافح إذا سقط في خياله كل المثل . وكيف يمكن لشعب مصر مثلاً أن يثق بنفسه إذا ظلّ يقية حياته مع الشكوك القاتلة : فلقد كان جمال عبد الناصر في اعتقاده بطلاً وطنياً وقومياً رفعه في حياته على كل الرؤوس وشيشه عند رحلته في بحر من الدموع . . . أفلأ يملك هذا الشعب أن يعرف أخيراً كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة في أمر مثل هذا الرجل ؟

هل كان البطل « جلاداً سفاحاً » كما يصورونه اليوم ؟

هل كان المناضل « لصاً مهرباً » كما يصورونه اليوم ؟

هل كان القائد « قاتلاً مع سبق الأصرار » . . . نعم العُمُمُ لطبيبه الخاص الدكتور أنور المفتى . . . ورثب كميناً بقبلة مدفع . ! - للفريق عبد المنعم رياض وهو الذي كان يذخره لمعركة التحرير التي يخطط ويستعد لها ؟

أو ليس ذلك بعض ما قيل بغية تدقيق أو تحقيق ؟

٣ - إذا كانت نتيجة التحقيق كله إدانة كاملة ونهائية للنظام عبد الناصر فمن الذي يتمسّك بالنظام كله من أصوله إلى فروعه ، أو ليس الوطن والأمة أولى وأبقى من أي نظام ؟ !

□ □ □

هذا هو رأيي وتظل عندي بعده ملاحظة أخيرة .

إننا لم نفعل ما فعلناه بأنفسنا فقط ، وإنما أسلنا إلى أمتنا العربية كلها ، وكنا بمثابة من يقول لها :

- لا تعمدى في شيء على مصر . . . فليعن لدى مصر إلا قناع الخداع .
لماذا ؟

لأن الأمة العربية أمامها خياران :

• أن تصدق ما يقال الآن فتحكم على مصر من ٢٣ يوليو ١٩٥٤ حتى ١٥ مايو ١٩٧١ .

• أو أن ترفض تصديق ما يقال الآن فتحكم على مصر بعد ١٥ مايو ١٩٧١ حتى هذه اللحظة !

ومصر خاسرة في الحالتين . . . وكذلك الأمة العربية . .

كلاهما بين الضحايا . . .

ومن الجاني ؟

هذا هو السؤال ؟ ! .

العنوان
الزابع

حكايات المذايم
اليمن ... القضاء
وجريدة الصحفة

أعترف أنتى شعرت براحة نفسية عميقه حينما قرأت للرئيس السادات حدثاً مع جريدة عكاظ ، السعودية ورد فيه على لسانه قوله : « إننى كنت مع جمال عبد الناصر فى كل همسة ،

ومبعث ارتياحى هو أنتى وجدت فى قول الرئيس السادات ردأً على هؤلاء الذين بحاولون إدانة جمال عبد الناصر دون أن يؤدى ذلك إلى إدانة النظام الذى قام فى مصر من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - من أوله إلى آخره !

... يتصورون أنهم بذلك - مذاجة أو خبئاً ؟ ! - يكررون فى مصر ما يظنونه حدث فى الإتحاد السوفيتى حين أدين ستالين ولم يؤدى ذلك إلى سقوط النظام الشيوعى كله . وفي ظنونهم - أو أوهامهم - أن عبد الناصر قام فى مصر بدور ستالين وأن أنور السادات يقوم بدور خروشوف فى التجربة المصرية !
وهم فى ذلك ينسون - أو يتناسون - فوارق شاسعة بين التجربة المصرية والتجربة السوفيتية .

الإتحاد السوفيتى مثلًا كان يمكن إغلاقه عما حوله ..
ومصر يستحيل فيها ذلك مهما كانت القبضة الممسكة بها من حديد لأن شواطئ مصر بمثابة نوافذ مفتوحة على العالم كله وعند نقط مواصلاته ..

والإتحاد السوفيتى مثلًا كان يمكن أن يستغنى عما حوله ..
ومصر يستحيل أن تستغنى عما حولها لأنها جزء عضوى منه . وطن من أوطان أمة عربية لا تستطيع أن تعيش إلا متصلة بها ولا تقدر على ممارسة دورها إلا فى إطار تأثيرها ..

ثم إن التركيب الحضاري مختلف . والعقائد الاجتماعية مختلفة ..

وفضلاً عن ذلك فإن جمال عبد الناصر كان شيئاً آخر غير جوزيف ستالين . ولا أستعمل هنا أوصاف تفضيل كأحسن أو أسوأ لأنني أعتقد أن كل زعامة سياسية تعبر عن مرحلة تاريخية في سياق من التطور متحرك ومتواصل ..

□ □ □

من هنا . ولأسباب أخرى . فإنه من العيب أن يوضع أنور السادات في الموضع الذي نرويه القصة المشهورة عن خروشوف ، بينما وقف في المجتمع من الإجتماعات يهاجم عهد ستالين ويتحدث عن المظالم التي وقعت فيه وتلقى خروشوف الثناء الإجتماعي ورقة مطوية من أحد حضوره كتب فيها :

«أيها الرفيق نيكита خروشوف .. وأين كنت أنت عندما جرى هذا كله ..».

وقرأ خروشوف الورقة على حضور الاجتماع ثم لاحظ أن مرسل السؤال لم يضع توقيعه عليه ، وسأل :

«من هو صاحب هذا السؤال .. إنني أطلب منه الوقوف لكي أرد عليه .
ولم يقف أحد .

وساد الصمت على الاجتماع كله ..

ثم قال خروشوف :

«هذا الصمت هو إجابة السؤال .. لقد كنت مع الرفيق الذي لم يضع توقيعه على ورقة أرسلها إلى ! ..

لا يمكن أن يوضع أنور السادات في هذا الموضع ..

ذلك عيب في حق الرجل وتاريخه ونضاله وشخصيته ، ثم إنه فوق ذلك مناف للحق
لحقيقة في الجملة وفي التفصيل ..

□ □ □

ولعلى أقول لكى أكون محدداً واضحاً إننى لا أتشفع في عبد الناصر بمشاركة أنور
السادات له . ولا أنفي أى تهمة عنه وحده ، بمسؤولية أنور السادات معه ..

ثم إننى كما قلت . وأكرر . لا أبرئ عبد جمال عبد الناصر مما يستوجب النقد ..

لكن النقد النزيه شيء ، والإدانة الكاملة بالإتهام - يلقى على عواهنه - شيء آخر ..

وموضوع فى رأى أكبر من موضوع عبد الناصر والسادات معاً . لأن الموضوع
هو مصر وضميرها وتاريخها ومستقبلها ، وهذه الأمة التى أصبتناها بالفزع من
حولنا ..

وقد أضيف أيضاً ما يلى :

- نعم . إن عبد الناصر مسؤول قبل غيره عن كل شيء وقع في عهده ، وقد كان هو أول من يصر على ذلك ويتمسك به .

أقول ذلك وأذكر يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ . .

كان عبد الناصر قد طلب إلى أن أعد له مشروع خطابه إلى الأمة بالتحى ، وكنا قد تناقشنا في الموضوع في الليلة السابقة وكان رأيي متفقاً مع رأيه في أنه يجب أن يذهب ، بعد أن صارت الأمور في ميدان القتال إلى ما صارت إليه ، ولم يكن في مقدوره - إنسانياً - تلك الليلة مع أحزنه وشواغله أن يجلس ليكتب خطاباً ، فاتفق معى على نقاطه وتعهدت أن أكتبه له . .

ووصلت إلى بيته في الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة ٩ يونيو . وكان في مكتبه لم يذق للنوم طعماً في تلك الليلة الليلاء . وحين دخلت عليه كان التليفون في يده وكان يتكلم مع أحد القيادة العسكريين في الجبهة يريد أن يضع حدأً للفوضى والإنهيار اللذين سادا الموقف كله . .

وجلسنا بعدها نراجع مشروع الخطاب الذي أعددته له ووصلنا فيه إلى عبارة تقول بالنص :

، وفيما يتعلق بي فإنتى على استعداد لتحمل تصيبى من المسؤولية ، . .

كنت قد كتبت هذه العبارة وأنا أعرف الظروف ولكن جمال عبد الناصر استوقفنى عندها وقال لي بالحرف :

ـ ما هو معنى أن أقول ، إنتى على استعداد لتحمل تصيبى من المسؤولية ، . .

وهز رأسه نفياً قاطعاً ثم قال :

ـ لا أرضى ذلك لنفسي . . . إنتى قاربخياً أتحمل المسؤولية كلها ويجب أن أقول ذلك للناس . .

وغيرت النص بعد إصراره على النحو الذي رأه .

أروى تلك الواقعية دلالة على أن جمال عبد الناصر نفسه أول الراضين - والمصرّين - على أن يتحمل المسؤولية كلها ، عن كل ما جرى في عهده . .

لكننا عندما نقول بذلك يجب أن نتصبّب ميزاناً لهذه المسؤولية يفرز الخطأ عن الصواب ، والإيجابي عن السلبي ، والحقيقة عن الإدعاء !

ثم إن علينا بعد ذلك أن نضع الواقع في إطارها ، والتصيرات في ظروفها ، والخيارات في حدود العناصر منها وقتها . وإنما كنا بمثابة من يدعى الحكم بأثر رجعي ، أو يطلب عصمة الآلهة لأحكام البشر ! . .

في حدود هذا المنطق وبالقرب منه فسوف اختار ثلاثة وقائع ينسب إلى جمال عبد الناصر أنه تصرف فيها كما يتصرف « سفاح » . هكذا فيل وبالحرف !

، سفح ، دم أبناء مصر على جبال اليمن ، و ، سفح ، دم العدالة في مذبحة للقضاء ،
و ، سفح ، دم الحرية بإغلاق الصحف !

□ □ □

سوف أبدأ باليمن فأسأل :

◀ هل يمكن أن يكون هناك تقييم للتدخل العسكري المصري في اليمن لا يأخذ
في حسابه الظروف السياسية التي كانت تسود العالم العربي وقتها ؟

كان ذلك بعد مؤامرة الإنفصال ، ونحن نذكر ملابساتها وما جرى في سوريا وقتها ، وكان
ذلك في أعقاب مؤتمر شتورة ، الذي اتخذه النظام الانفصالي في سوريا منبراً للهجوم على الحركة
الوطنية العربية ، وكان يبدو أن القوى المعادية للتقدم العربي تريد أن تخنق كل صوت ينادي
بالتحرر العربي . .

وفي ذلك الوقت جاءت ثورة اليمن ، وانقضت عليها العواصف ، ولا أريد أن أعود إلى
التفاصيل حتى لا أنكأ جراحًا قديمة مثافها الزمن فيما ألمني . .

وفي يوم عصيب من أيام شهر أكتوبر ١٩٦٢ كانت ثورة اليمن الوليدة وحدها في مهب
العاصفة . .

وفي القاهرة كانت هناك مشاورات مستمرة بعد أن طلبت الثورة الوليدة نجدة من مصر بدورها
وحجمها في العالم العربي في ذلك الوقت . .

وكان أنور السادات أكثر الناس اهتماماً بهذا الموضوع في القاهرة لأن اختصاصه
السياسي في القيادة المصرية كان يشمل ضمن ما يشمل شؤون اليمن والجنوب العربي
والخليج ، وكانت توصية أنور السادات - في نطاق اختصاصه - تتلخص في أن مصر لا يسعها
أن تتفرج على ما يجري في اليمن مكتوفة اليدين ، وأن الواجب القومي يحthem عليها أن تتدخل
 العسكريًا - خصوصاً بالطيران - لرد العاصفة عن الثورة اليمنية .

ودارت مناقشات واسعة حول هذه التوصية . .

وأذكر أنه كان لي في الموضوع رأي مختلف ، وقد قلته لجمال عبد الناصر ، وأتجراً فاقول
لك لأن جمال عبد الناصر أشار إلى رأيي في آخر جلسة حضرها لمجلس الوزراء قبل رحلته ،
ما قاله في هذا الصدد مسجل بصوته في وثائق مجلس الوزراء . . شاهدوا ومرجعاً . .

كان رأيي في ذلك الوقت يتلخص فيما يلى :

- أنت لا أعرف إذا كانت الظروف الموضوعية في اليمن مهيأة لنجاح الثورة . .
- ثم أنت لا أعرف إذا كانت الثورة التي قامت في اليمن تستطيع أن تتحمل عملياً نقل التدخل
ال العسكري المصري في اليمن ، وبواسطة القوات المسلحة المصرية .

وسألني جمال عبد الناصر سؤالاً مباشراً :

ـ هل معنى ذلك أن نترك الثورة اليمنية وحيدة يسهل ضرها . . . وماذا يحدث للحركة العربية العامة إنن ؟

وقلت :

ـ إنني أدرك أهمية تجدة ثورة اليمن ، ولهذا فإنني أقترح تشكيل قوات متطوعين عرب من كل البلاد العربية يذهبون إلى اليمن للقتال في صفوف الثورة .

وأضفت متجمماً :

ـ لماذا لا نجعل اليمن معركة شعبية للحرية بمثيل ما كانت الحرب الأهلية في إسبانيا معركة شعبية للحرية ، وحتى لو أتنا خسناً المعركة فإن الخسارة ستتحول إلى أسطورة في النضال العربي تلهم وتلهب خيال أجيال بعد أجيال . .

ذلك أسلم في رأيي من الزج بالقوات المسلحة المصرية في ظروف شاقة معظمها مجهول . . .

ثم قلت للرئيس وقتها :

ـ لدى دراسة قام بها باحث مصرى عن الأحوال في اليمن وعن تاريخه المعاصر ، وأريدك أن تقرأها ، وسوف أرسلها لك . .

(أشار جمال عبد الناصر إلى هذه الدراسة في التسجيل الموجود بصوته في سجلات مجلس الوزراء في آخر جلسة حضرها قبل الرحيل) .

كان الرأى العقابل لرأيي وقتها يتلخص فيما يلى :

● أن أمن ومستقبل الحركة الوطنية العربية معلق في العيزان . .

● أن الوقت لا يتحمل التردد ، وإلا ضاعت الثورة اليمنية . .

● أن تدخل بعض قوات الصاعقة ، وسراب واحد من الطيران يكفى . .

وبهذا المنطق تدخلت مصر لنجد الثورة في اليمن وكان أنور السادات - ولمدة خمس سنوات مئصلة - هو المسؤول الذي تولى إدارة الجهد السياسي المصري في اليمن في حين أن عبد الحكيم عامر كان المسؤول عن الجهد العربي . .

وأعترف الآن - وهذه شهادة صدق - أن أنور السادات كان على حق في مناداته بالتدخل العسكري لحماية الثورة في اليمن وأنني كنت على خطأ لأنني نظرت إلى الموضوع من وجهة نظر مصرية إقليمية بحتة وذلك لا يجوز إزاء مسؤولية مصر ودورها القومي . .

ذلك لأن الزاوية القومية هي الزاوية التي يجب أن نقين منها التدخل في اليمن ، فلقد أحدث التدخل المصري في اليمن آثاراً واسعة المدى أخصها فيما يلى :

١ - لقد خرج الإستعمار البريطاني من شبه الجزيرة العربية ، واستقلَّ الجنوب واستقلَّ الخليج .

٢ - تحت ضغط التدخل المصري فإن السيطرة الأمريكية اضطرت إلى إرخاء قبضتها المسيطرة على الموارد العربية في شبه الجزيرة واتخذت موقفاً أكثر تلاوياً مع الأنظمة الوطنية وسمحت لها بدور متزايد في توجيهه أمور ثرواتها ..

٣ - إن الدول الوطنية في هذه المنطقة اتجهت تحت ضغط الظروف إلى التحديث ، وقد كان من النتائج المباشرة لتطورات المارك في اليمن أن اعتلى الملك فيصل عرش السعودية ، وبدأت عملية ، التحديث ، في المملكة تحت توجيهه ، وراحت الأسرة في السعودية تتتحول إلى دولة ..

وهذه كلها منجزات تاريخية ضخمة لا يمكن تقييم التدخل المصري في اليمن بغير إدخالها في الحساب بصرف النظر عن الثمن الذي دفعته مصر ..

ولذا أردنا أن نناقش الثمن الذي دفعته مصر فإن ذلك سوف يقودنا إلى تأمل الظروف التي أنسنت فيها حرب اليمن ..

لن الحرب اتسعت لا لأن هذا الطرف العربي أو ذاك تدخل فيها ، وإنما اتسعت الحرب حينما تدخلت فيها قوى السيطرة العالمية ، وفي مقدمتها إدارة المخابرات المركزية الأمريكية التي جئت للحرب آلافاً من الجنود المرتزقة الأجانب ، الإنجليز وألمان وفرنسيين وأمريكيين ، وقصة هؤلاء ذاتعة مشهورة ، ولكن ذاكرتنا ضعيفة ننسى بسهولة ما هو حق لنا ونبتاع بسهولة دعاوى الآخرين علينا ..

ننسى أنه في وقت من الأوقات كان هناك أكثر من خمسة عشر ألفاً من الجنود المرتزقة الأجانب في اليمن ..

وننسى أن لندن - كما حدث في حالة أنجولا - كانت مركز تجنيدهم وتسلیحهم وإرسالهم إلى اليمن ..

أكثر من ذلك .. ماذا أقول ؟

هل أقول - والقول صحيح - أن المخابرات المركزية الأمريكية كانت تجد المرتزقة الأجانب للحرب في اليمن وأنها كانت مسؤولة عن عملياتهم وعن التنسيق بينهم وبين ذوي إسرائيل في مساعدتهم ؟

هل أقول - والقول صحيح - أن إسرائيل كانت تتولى مسؤولية إلقاء الذخائر والأسلحة بالطائرات لهؤلاء الجنود المرتزقة الأجانب في مناطق محددة في جبال اليمن ؟ .

هل أقول - والقول صحيح - أن الرئيس الأمريكي جون كلينتون كان يعلم بحقيقة

ما يجرى في اليمن ، وكان أحد مساعديه وهو المستر كومار هو ضابط التنسيق بين البيت الأبيض وإدارة المخابرات المركزية الأمريكية ، وكان كنيدى يسمى حرب اليمن بقوله : « حرب كومار الخاصة » .

وإذا قلت بذلك - إنن ألا تكون وضعنا حرب اليمن في سياقها الصحيح من قصة النضال العربي المعاصر .

إطارها مسؤولية مصر القومية .

ظروفها الصراع المتصل بين الحركة الوطنية العربية وبين قوى السيطرة العالمية . ونتائجها ليس فقط ما دفعته مصر من تضحيات في اليمن ، ولكن هذا التحول الضخم الذي نراه الآن في شبه الجزيرة العربية ، وعند طرفها الجنوبي ، وعلى شطآن الخليج ! .

□ □ □

◀ مذبحة القضاء وسفح دم الحرية .

أنتقل الآن إلى واقعة « سفح دم العدالة » بمذبحة القضاء ، وسوف أروى بشأنها ما أذكره من ظروفها ، وأعتقد أن ذاكرتى ما زالت سليمة .

أقول، أولاً إن جمال عبد الناصر لم يتدخل في حياته في حكم من أحكام القضاء ، وكان لديه ذلك الإحساس العميق بقدمية العدل ، وهو إحساس له جذوره البعيدة في المجتمع المصري بحكم التكوين الحضاري لشعب استقرت حياته في بيئه زراعية ترسخت فيها فكرة الإحتكام إلى قانون القضاء .

وأذكر الحرج الذي أحس به يوماً حين جاءه خطاب مكتوب من « الملك سعود » يرجوه فيه أن يتدخل لكي تحصل « السيدة ناريمان » ملكة مصر السابقة على طلاق من زوجها « الدكتور أدهم النقبي » . وكانت « ناريمان » قد لجأت إلى الملك . وكان النزاع بين الزوجين قضية أمام محاكم الأحوال الشخصية في مصر وهبت إلى حد أن طلب الزوج زوجته في بيته الطاعة واستصدر حكماً قضائياً بما طلب .

وأراني جمال عبد الناصر خطاب الملك سعود إليه بتوفيقه وهو يقول :

« إننى أريد أن أجامل الرجل في أي شيء يطلبه مني . . ولكننى قصدنى حيث لا أستطيع أن أجيب طلبه ، ولا أعرف كيف أرد عليه ، وهل يصدقنى إذ قلت له إننى لا أستطيع أن أتدخل في أعمال محكمة شرعية ؟ وكيف أتدخل ؟ ! » .

رويت هذه الواقعة الصغيرة كمقدمة فقط !

وأصل منها إلى الظروف التي أحاطت بما أطلق عليه وصف مذبحة القضاء في صيف سنة ١٩٦٩ .

في صيف ذلك العام ١٩٦٩ كان جمال عبد الناصر في إجازة إجبارية بالإسكندرية ، كان مقرراً

أن يسافر في ذلك الصيف للعلاج الطبيعي مرة ثانية في مصحة « تسخالطويو » في الإتحاد السوفييتي ، ولكن تطورات حرب الاستنزاف عوقته عن السفر ، وأجل سفره أسبوعاً بعد أسبوع ، ثم ألغى سفره في تلك السنة تماماً ليكون بقرب المعارك الدائرة على الجبهة ونصحه الأطباء بأسبوعين على الأقل يقضيهما في إجازة كاملة .

ولكن شواغله كانت تلح عليه ، ولا تمنحه الفرصة التي يلح عليها أطباؤه . . .

وسمعت منه ذات مرة خلال تلك الفترة في الإسكندرية أن بعض المشاكل في مجال القضاء تطرح نفسها عليه ، وأن تقارير أمامه تشير إلى أن بعض المحاكم تطرد فلاحين من أراضيهم المستأجرة لصالح كبار المالك ثم إن بعض هذه التقارير يشير إلى أن بعض القضاة الذين أصدروا مثل هذه الأحكام سبق أن طبقت عليهم أو على أمرهم أحكام قانون الإصلاح الزراعي ، وكان رأيه أن ذلك وضع لا بد من بحثه وأنه شكل لذلك لجنة خاصة سوف تقدم إليه توصياتها ، وكان بين أعضائها السادة شعراوى جمعة وسامي شرف والمستشار عمر الشريف المستشار القانوني لرئيس الجمهورية وأخرون . . .

والاحظ هو تحفظى على ما سمعته منه فأضاف :

- « إننى وضعت أنور السادات على رأسهم لكي يتبع ما يفعلون ، وهو بينهم الذى يتصل بي » .

ورغم أننى أحسست بارتياح إلى وجود أنور السادات بالقرب من عمل هذه اللجنة ، فلن الحساسية الخاصة لموضوع القضاء جعلتني أفك وأحاول من بعيد متابعة عمل اللجنة وأسائل كثيرين من المتصلين بالمسألة وبينهم المستشار نصار نصار رئيس مجلس إدارة نادى القضاة ، وقد لقيته فى تلك الفترة أكثر من مرة . . .

وذلت مرة في الإسكندرية كنت على موعد مع جمال عبد الناصر في استراحة المعمورة في الساعة الثانية عشرة ظهراً ، وكنت أريد أن أكلمه . ضمن موضوعات أخرى - في مسألة القضاء . . .

ولكى أكون مستعداً دعوت الدكتور جمال العطيفي وهو المستشار القانوني « للأهرام » وقتها ، ووكيل مجلس الشعب الآن ، إلى لقائى في الصباح الباكر من ذلك اليوم ، وأثرت معه موضوع القضاء تفصيلاً ، وسمعت منه رأيه وهو رأى خبير يدرك أهمية وخطورة وجلال تناول موضوع له هذه الحساسية . . .

وطال حديثنا إلى قرب الظهر ، ورأودنى إحساس بأن جمال عبد الناصر يجب أن يسمع ما سمعت من جمال العطيفي ولكن كيف ؟ !
وقلت لجمال العطيفي :

- « إننى على موعد مع الرئيس ، وسوف أقول له ما سمعت منك ، وأريدك أن ترکب معى

في سيارتي وتنظر فيها ، حتى إذا ما احتجت إلى أية تفاصيل أثناء حديثي مع جمال عبد الناصر
خرجت فاستوضحت منه ما أريد . . .

وذهبت إلى المعمورة ودخلت مكتب جمال عبد الناصر وسيارتي في الخارج ينتظرني فيها
جمال العطيفي . . .
وفتحت الموضوع . .

قلت إن مسألة القضاء حساسة ، فهو مرفق في مصر مقدس ، وأى اقتراب منه يجب أن يكون
بعنجهى الدقة والتحرز .

ثم قلت إننى تحدثت في هذا الموضوع مع خبراء يعرفون أهميته وقدره وبينهم جمال العطيفي
الذى كان معى هذا الصباح وحتى الظهر وكان يودى لو أن الرئيس استطاع أن يسمعه مباشرة . . .
ثم أضفت :

— لقد فكرت أن أجئء بجمال العطيفي ليقابلك معى وحتى تسمع منه ولكنى ترددت .
قلت ذلك وانتظرت . . .
وقال جمال عبد الناصر :

— ليتك فعلت . . . إننى حقيقة أريد أن أسمع رأى خبير لا علاقة له بجهاز الدولة . . . كثيراً
ما حاولت ذلك في مسائل أخرى ولكنهم يجيئون أمامى فلا يتكلمون .
قلت :

— أظن أن جمال العطيفي يمكن أن يتكلم خصوصاً إذا كنت معه .
وقال الرئيس :
— ليعن لك حق أنك لم تأت به .
وقلت معترفاً :

— جمال العطيفي معى في سيارته هنا في المعمورة ولم أقل له أن هناك احتمالاً لأن يراك ،
 وإنما قلت له أننى قد أحتاج إلى استيضاح بعض الأمور منه إذا احتجت لذلك . . .
وقال عبد الناصر :
— إذهب وأتى به . . .

وخرجت إلى سيارته وجمال العطيفي ينتظرني فيها أقول له إن الرئيس يطلبه .
وفتحت الدهشة فمه ولكنه سار معى . وقلت له ونحن ندخل البيت :
— جمال هذه فرصة لا تعوض . . . وأرجوك أن تتكلم بنفس الصراحة التي كنت تتحدث بها
معى .

ودخلنا على جمال عبد الناصر .

بعد عشر دقائق من الحديث كان جمال عبد الناصر قد أزال بحديثه البسيط كل أثر للدهشة والرعب عند رجل لم يكن يعرف أنه ميلقا ، ولم يكن مستعدا للقائه .

ثم استمرت جلستنا في شرفة بيت المعمورة لمدة قاربت الثلاث ساعات .

وكان جمال العطيفي يتكلم ، وكان جمال عبد الناصر يسأل ويستوضح ويستوثق .

وفي النهاية قال الرئيس :

- جمال .. هل عندك مانع أن تتضمن إلى اللجنة التي تقوم بدراسة الموضوع . . ؟ وكان رد جمال العطيفي ، أنه يشرفه القيام بأى خدمة يطلبها منه الرئيس .

وأحسست بعد هذه المقابلة أننى أذيت واجبى كمواطن وكصديق لجمال عبد الناصر .

وكان منطقى أنه إذا كانت اللجنة التي تبحث موضوع القضاء تعمل تحت رقابة أنور السادات ويشترك فى أعمالها جمال العطيفي - إذن فالامور فى مسارها الصحيح .

وصدرت بعد ذلك يوم ٣١ أغسطس ١٩٦٩ إجراءات فى مجال القضاء ، وأثارت هذه الإجراءات ردود فعل كان يمكن أن يسمعها جمال عبد الناصر ويستجيب لها ، ولكن الثورة فى ليبيا قامت يوم أول سبتمبر سنة ١٩٦٩ ، وشدت الإنتباه كلها إلى ناحية أخرى .

.....
.....

وإذن أمام عينى لم يكن الرجل مندفعاً بشراسة قاتل - ! . إلى مذبحه للقضاء .

لقد كانت أمامه مشكلة اجتماعية سياسية رأها من وجهة نظره - خطأ أو صواباً - تتطلب حلّاً .

ومشكل لجنة لدراستها والتوصية بما يمكن عمله حيالها ، ضمن أعضائها مستشار الرئاسة القانونى ، ووضع فوق اللجنة زميلاً له موثوقاً به ليتابع أعمالها .

ثم كان على استعداد لأن يسمع .

بل وكان على استعداد لأن يناقش أكثر مع من يستطيع مناقشه فى موضوعه ولو بغير موعد سابق .

ول يكن أن شيئاً ما فيما اتخذ من إجراءات - جانب التوفيق - ليكن .

لقد كان ممكناً دراسة ما حدث وتحقيقه وتصحيحته وحتى الحساب عن أي تجاوز فيه بدون حملات كراهية ضد رجل نقل أحكام القضاء فى مصر كلها من الصدور باسم ملك طاغية إلى الصدور باسم الشعب وتحت سيادته . . .

ثم أصل إلى قصة ، سفح ، نم الحرية بمصادر الصحف ، وأظن أن الفائلين بها يقصدون واقعة إغلاق جريدة ، المصرى ، التي كان يملكها ، الاستاذ محمود أبو الفتح ، والتي كان يرأس تحريرها أخوه ، الاستاذ أحمد أبو الفتح .

وكان ، أحمد أبو الفتح ، قد تعرف إلى جمال عبد الناصر عن طريق صهره ، ثروت عكاشة ، الذي كان عضواً مرموقاً في حركة الضباط الأحرار .

وكان صوت الاستاذ ، أحمد أبو الفتح ، من الأصوات المعمعوعة لدى مجلس الثورة في الفترة الأولى . فقد كان دوره - وسط مجموعة الشباب التقدمي الجديد الذي ظهر في حزب الوفد وعلى اليسار من التيار الرئيسي فيه - دوراً ظاهراً ومن هنا كان طبيعياً أن يكون الاستاذ ، أحمد أبو الفتح ، حلقة الاتصال بين النظام الثوري الجديد وبين حزب الوفد الذي كان حزب الأغلبية حتى ذلك الوقت .

ومع بداية سنة ١٩٥٣ كانت الخلافات قد بدأت تدب في العلاقات ما بين جمال عبد الناصر والستاذ ، أحمد أبو الفتح ، وكانت لهذه الخلافات ثلاثة أسباب .

□ أولها - سبب سياسي : ذلك أن معنى الديمقراطية لم يكن واحداً بالنسبة للإثنين : كان جمال عبد الناصر يرى أن أي تعبير سياسي هو انعكاس لحقائق اجتماعية وإقتصادية ، وإذا كان مطلوباً إقامة ديمقراطية سياسية سليمة في مصر تعبر عن رأي الأغلبية وسلطتها فإن ذلك لا يتأنى إلا إذا كانت الحقائق الاجتماعية والإقتصادية في الوطن تعطى لهذه الأغلبية وزنها وثقلها .

وكان جمال عبد الناصر يرى أن إجراء أي انتخابات قبل إجراء تغييرات [جتماعية] اقتصادية تعطى الأغلبية وزنها وثقلها الاجتماعي والإقتصادي لن يكون من شأنه إلا أن يعيد إلى السلطة نفس العناصر القديمة التي تمثل الطبقة المتميزة في مصر والتي تسيطر على الحقائق الاجتماعية الإقتصادية فيها ، وهذا يصبح بمثابة العودة إلى ديكتاتورية الأقلية الطبقية تحت اسم الديمقراطية .

وكان رأي الاستاذ ، أحمد أبو الفتح ، يختلف عن ذلك ، فقد كان يرى أن حل مشكلة الديمقراطية هو بإجراء الانتخابات فوراً ، وعلى أي حال فقد كان ذلك منطقياً مع موقفه ومع انتماشه إلى حزب الوفد .

□ وثانيها - سبب نفسي : ومرجعه فيما أظن إلى أن الاستاذ ، أحمد أبو الفتح ، بالغ - ربما بحسن نية - لدى أصدقائه القديمي في أهميته بالنسبة لأصدقائه الجدد ، وبالتالي فقد كان حزبه وكانت جماعته وكانت أمراته تنتظر منه أن يحقق لهم جميعاً أشياء عجز عن تحقيقها ، وبإحساسه بالحاجة فقد تحول خلاف الرأي إلى عناد ثم إلى عداء .

□ ثالثها - سبب يعود إلى أن الاستاذ أحمد أبو الفتح كان يشعر بوفاء شديد لأخيه الاستاذ ، محمود أبو الفتح ، ويعتبره وهذا صحيح ، ولـى نعمته ، وهذا تعبيره بالحرف لـى وقتها - ولكن الاستاذ ، محمود أبو الفتح ، كان قد ترك الصحافة وجريدة المصرى لأحمد أبو الفتح وتفرغ هو تماماً لدور رجل الأعمال .

وأحسن ، أحمد أبو الفتح ، أن أخي لا يأخذ ما يعتبره هو حقاً له وأن فرصاً كثيرة ضاعت أو ضيّعت عليه لأسباب لا يعرفها .

ولعل أكثر يوم شعرت فيه بأبعاد أزمة ، أحمد أبو الفتح ، هو يوم أتيحت لي أن التقى فيه بالأستاذ « محمود أبو الفتح » في بيروت في شهر يناير من سنة ١٩٥٤ .

كنت عائداً من دمشق عن طريق بيروت ، وفي فندق ، سان جورج ، التقى بالأستاذ « محمود أبو الفتح » ووقفنا في ردهة الفندق نتبادل أحاديث مجاملات . ثم سأله عن « أحمد » وكان قد غادر القاهرة إلى جنيف ، وقال لي الأستاذ « محمود » . وللرجل مكانته بالنسبة لأى صحفى بوصفه واحداً من الرعيل الأول من بناء الصحافة المصرية الحديثة سواء اتفق أو اختلف مع آرائه وموافقه . إنه يريد أن يجلس لحديث طويل معى عن العلاقات بين جمال عبد الناصر و « أحمد أبو الفتح » . وجلسنا نحن الاثنين تلك الليلة في ركن من صالون « السان جورج » نتحدث حتى الساعة الرابعة صباحاً .

وبعد أيام من عودتى إلى القاهرة كان الأستاذ « محمود أبو الفتح » قد اتصل بالدكتور « السيد أبو النجا » المدير العام للمصرى وقتها ، وهو فى نفس الوقت موضع ثقة الأمارة كلها ، وطلب إليه أن يتصل بي لكي نرتّب « ما اتفقا » عليه فى بيروت .

وكنا قد اتفقا على ترتيب مقابلة بين جمال عبد الناصر والأستاذ « أحمد أبو الفتح » . والتقى مع الدكتور « السيد أبو النجا » الذى كان وما زال صديقاً مقرراً لي وكان يريد أن يستوثق من نقطة واحدة :

ـ انه سوف يطلب إلى الأستاذ « أحمد أبو الفتح » أن يركب الطائرة من جنيف إلى القاهرة ، فهل أضمن عودته إلى جنيف مهما كانت نتائج مقابلته مع جمال عبد الناصر ؟ .

ـ وقلت للدكتور « السيد أبو النجا » وهو المشرف العام على « دار المعارف » اليوم : إننى أتعهد أن أكون فى استقبال الأستاذ « أحمد أبو الفتح » عند وصوله بالطائرة من جنيف وأتعهد أن أكون فى وداعه بعد المقابلة على متن أول طائرة عائدة إلى جنيف ! .

وجاء الأستاذ « أحمد أبو الفتح » وذهبنا معاً إلى بيت جمال عبد الناصر وجلسنا نحن الثلاثة لحديث طال أربع ساعات ، وفي الواقع فقد كان الحديث بين الاثنين ، وكانت أتابع ما يدور بينهما صامتاً ، أتدخل أحياناً عندما تظهر عقدة في حبالي ! .

لكن الخلاف كان واضحاً بين الاثنين في الآراء وفي المواقف .

وارتفعت درجة حرارة الحديث مرتين :

مرة عندما أثار جمال عبد الناصر مسألة الاتصالات التي يقوم بها الأستاذ « محمود أبو الفتح » في « أوروبا » وفي العالم العربي . خصوصاً مع « نوري السعيد » رئيس وزراء العراق ، وقتها ، وكان رد الأستاذ « أحمد أبو الفتح » أن علاقات أخيه « بنوري السعيد »

هي علاقات رجل أعمال يورد مهمات لمشروعات تتفذ في العراق ، إلى جانب اهتمامه بتوريد السلاح كوكيل لبعض شركاته .

وكان رأى جمال عبد الناصر - بناء على معلومات لديه بالطبع - أن الصلات والاتصالات فيها عنصر سياسي !

ثم ارتفعت درجة حرارة الحديث مرة أخرى عندما نسأله الأستاذ ، أحمد أبو الفتح ، :

- لماذا تضار مصالح أخي محمود في مصر ، ولا يحصل على حقه ؟

وسأله جمال عبد الناصر :

- وهل حدث ذلك ؟ .

ورأى الأستاذ ، أحمد أبو الفتح ، قائلاً :

- نعم ... إن أخي تقدم لمشروع أتوبيسات النقل في القاهرة ولكن ، عبد اللطيف أبو رجبة ، أخذ المشروع ولم يأخذ ، محمود أبو الفتح ، .

ثم ألم ، محمود أبو الفتح ، تقدم وكيلًا عن شركة سلاح يعرض بندقية من عيار ٨٦ وهذه هي البندقية التي أقرت ، لحلف الأطلنطي ، ، ومعنى ذلك أنها ممتازة ، ولكن اللجنة العسكرية التي تشرف على مشتريات السلاح رفضتها ! ،

وبدت الدهشة على وجه جمال عبد الناصر وسأل :

- وهل تتصور أن لي علاقة بذلك أو أنني أتدخل في مثل هذه الشؤون ، هذه مسائل تقرها الوزارات المسئولة ، .

وبدا الضيق على ملامح عبد الناصر وشاع الأسف في نبرة صوته وهو يقول بالحرف :

- « جرى إيه يا أحمد .. أتوبيسات إيه ؟ وينادق إيه ؟ ، .

وكان واضحًا أمامي أن الحديث سار إلى طريق مسدود .

وذهبت لوداع الأستاذ ، أحمد أبو الفتح ، طبقاً لما تعهدت به ، وأقلعت الطائرة التي استقلها إلى « جنيف » ورويت تفاصيل ما حدث للدكتور السيد أبو النجا ، وشعورى هو أن القصة لم تتم فصولها !

.....

.....

وفي الأسابيع التالية بدأت أسمع من جمال عبد الناصر أكثر من مرة - وبأسف أكثر من غضب - عن النشاط المنسوب إلى الأستاذ ، محمود أبو الفتح ، في « أوروبا » وفي بعض العواصم العربية وبالذات ، « بغداد » ، نوري السعيد .

ثم عرفت يوم ٢٧ أبريل ١٩٥٤ أن نشاط الأستاذ ، محمود أبو الفتح ، أحيل إلى « محكمة الثورة » وأن قرار الإدعاء ضده ينص على :

، أله أتى أفعالاً ضد سلامة الوطن ومن شأنها إفساد أداة الحكم وذلك أنه في غضون سنة ١٩٥٤ وما قبلها ارتكب الأفعال التالية :

- ١ - قام بدعایات واتصالات ضد نظام الحكم القائم بقصد تقويض النشاط القومي للبلاد .
 - ٢ - أغوى موظفاً عمومياً بطرق غير مشروعة على المساهمة في إتمام صفقة تجارية لمصلحته الذاتية .
-
.....

وفي يوم ٢ مايو ١٩٥٤ أصدرت محكمة الثورة حكمها وكان الحكم إلى جانب السجن والمصادرات ، ينص بالحرف على «سحب رخصة جريدة المصري منه ، وبذلك تتغطى الجريدة عن الصدور ابتداءً من اليوم » .

.....
.....

كان تشكيل محكمة الثورة التي حاكمت وحكمت على النحو التالي :

قائد الجناح عبد الطيف البغدادي رئيساً .

القائم مقام أتور السادات عضو يمين .

قائد الأسراب حسن إبراهيم عضو يسار .

كان هؤلاء الثلاثة هم القضاة الذين وضعوا أيديهم على المصحف الشريف وأقسموا على أن يراعوا الله والوطن والضمير في أحكامهم .

ثم عرض الحكم للتصديق على مجلس الثورة ، وكان رئيسة اللواء محمد نجيب وتمت الموافقة عليه .

□ □ □

ثم

ماذا أقول بعد ذلك ؟ !

الحادي
الخامس

قصة التجاوزات الاعتقالات والحراسات والفصل التعسفي

كان عبد الناصر بطبيعته ينفر من العنف ...

وأقلن أن الحملة الدائرة في مصر ضدّه الآن تشهد له بذلك على غير قصد من أصحابها .
تشهد له بأنه نصرف كإنسان يصيب ويخطيء ، ولكنه كان عزوفاً عن سفك الدماء باسم الثورة
أو حتى طلباً لحمايتها .

وفي معركته مع الطبقة التي كان لها احتكار الثروة والسلطة في مصر فقد فُقد إلى تصفية
امتيازات الطبقة ولكنه رفض تصفية أفرادها كبشر .

ويقى هؤلاء في الانتظار حتى واتتهم الفرصة بعد رحيله ، فتحالفوا مع عناصر وقوى
جديدة ضالعة وطامعة ثم الدفعوا جميعاً إلى هجوم مضاد على الثورة كلها وعليه كرمز لها
وشنوا عاصفة الخماسين المثلثة برمي الأحقاد الصفراء والأترية السوداء التي تهب على مصر
الآن في محاولة لتفطية وجه الشمس !

□ □ □

ولقد شهد أنور السادات في حديث أخير له أن جمال عبد الناصر وقف في أول يوم من
الثورة ضدّ محاكمة الملك فاروق وإعدامه ، وأنه وحده بعد ذلك وضد رأي كل أعضاء مجلس
قيادة الثورة رفض فكرة الدكتاتورية العسكرية وكان غيره يراها وسيلة للإصلاح السريع !
وأشهد أن أنور السادات قال الحق بذلك ولم يتجرّ على أحد .

وأنذكر مثلاً قصة الملك فاروق .

أنذكر مثلاً جمال عبد الناصر وهو يتحدث في اجتماع لمجلس الثورة صباح يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢
وهو يقول بمنطق بسيط :

- ما هو معنى أن نحاكم الملك ونعدمه ؟
 أولاً إذا كنا قد قررنا سلفاً أن نعدمه فلماذا نحاكمه ؟ ..
 ويستطرد بعد ذلك بصوت مشحون بالعاطفة :
 - إسمعوا .. إنني أقول لكم جميعاً أن الدم لا يزدئ إلا إلى المزيد من الدم .
 هل قرأتم كتاب « تشارلز ديكنز » ، قصة مدينتين ؟ .
 علينا أن نتعلم درس الثورة الفرنسية ؟ وإلا ما فائدة التاريخ ؟ ،
 وأنذكره وهو يتحدث عن رفضه للدكتatorية العسكرية ويقول :
 - لا نستطيع في نفس واحد أن نتحدث عن « الثورة » ، و « الديكتاتورية العسكرية » ، هذا
 شيء .. وذلك شيء آخر .

الثورة بالشعب والديكتاتورية فوقه ، وعليها أن نقر هل نحن مع الشعب أم نحن « جماعة
 ترکب على نفسه » ، وتسيّره حيث تريد بصرف النظر عن إرادته ؟ ،
 ومع ذلك فلابد أن أسلم أن عصر جمال عبد الناصر أثمن باعتماد أكثر مما يجب على
 السلطة ، ثم أن فشله الكبير كان التنظيم الشعبي .
 ولقد تعرضت لبعض الأسباب في ذلك مرات سابقة ، وإذا جاز أن الخصم اليوم لمجرد
 التذكرة فإني أقول :

● فيما يتعلق بالدور الزائد للسلطة في عهده فلا بد أن نذكر أن جمال عبد الناصر عاش
 عصر الحرب الباردة ، حين كانت اعتبارات الأمن الداخلي هي نفسها جبهة الحماية الوطنية .
 كانت القوى الكبرى التي تستهدف السيطرة على مقدرات الشعوب الصغيرة تحاول غزوها
 من الداخل ، وتحاول العدوان عليها بغير وسائل القوى العسكرية المباشرة .
 وهكذا كانت الجبهات الداخلية للشعوب ، وليس حدودها الدولية ، هي الجبهات الأكثر
 تعرضاً للهجوم .

ووثائق المخابرات الأمريكية المنشورة الآن تأكيد لهذه الحقيقة .
 هكذا أصبحت الصراعات الخفية طابع العصر وأصبحت الوسائل السرية من أهم القوى
 المحركة للحوادث .

وتصاعد دور أجهزة الأمن والمخابرات .
 ● وفيما يتعلق بالتنظيم الشعبي فإن بعض العذر مرده إلى أن القوى التي بدأت الثروة والسلطة
 في الانتقال إليها لم تكن على استعداد للانتقال بسرعة من العجز الكامل إلى القدرة الكاملة وكان
 لابد أن تمر مرحلة انتقال تنمو فيها وتتمرّكز مواقع العمل الجماهيري المنظم .
 وأنذكر مرة كنت فيها معه في مسيرة يقودها على طريق « برج العرب » في الصحراء
 الغربية .

وتوقف عند جماعة من عمال التراخيص يعملون في إصلاح جانب من الطريق ، ونزل إليهم ووقف وسطهم ، وراح يتحدث معهم .

وحين عدنا إلى السيارة وأدار مفتاحها وانطلق بها على الطريق وجده يهز رأسه ويقول :
ـ مثل هؤلاء هم الأغلبية في مصر .. وهم التحدي الحقيقي في مصر ..
لا تتصور أن مشكلة مصر هناك في واجهة القاهرة الحديثة .. كل ما هناك في هذه الواجهة قشرة

ثم استطرد :

ـ الكارثة أن هؤلاء الذين نريد أن نعمل من أجلهم لا يصل إليهم صوتنا .
لا يقرأون جريدة ، ولا يملكون راديو أو تليفزيون .
كيف الوصول إلى هؤلاء وتحريكهم .. ؟ لا أعرف .. ١٩ .
وطال صمه بعدها .

وال المشكلة حتى عند الذين يصل إليهم ، أنه كان يلغى بقوة شخصيته وبالثقة الجماهيرية فيه دور التنظيم الشعبي لأنه كان يتتجاوزه .. تعود الناس أن ينتظروا كلمته ، ويستجيبوا بالحركة معها ، ويجد التنظيم نفسه معزولا خارج دائرة الاتصال المباشر بين الزعامة الأسطورية وجماهيرها ٢٠ .

□ □ □

ومع ذلك فهل كان التجاوز في الإعتماد على السلطة إلى هذا الحد الذي يقولون عنه اليوم في مصر ويصفونه بالكلمة وبالصورة ٢١ .

أشهد أمانة على أن ذلك ليس صحيحاً ولكن الحملة الموجهة إلى شعب مصر الآن ترتكز وتركتز حتى لا يستطيع أحد أن يفتح فمه قبل أن يبرئ نفسه من أي مسؤولية ويبداً بإدانة التجاوزات كلها جملةً وتفصيلاً ثم يروح بعد ذلك - إذا شاء - فيدافع عن الحقيقة على استحياء ، وذلك في حد ذاته يثبت في الأذهان أن الإتهام أصيل وأن الدفع فرعى .

وأعتقد أن السكوت على ذلك نوع من القبول بالتشهير . وإذا كنت لا أقبل لنفسي أن أسكت إزاءه - فإنه يشجعني أن المسجل فيما يتعلق بي واضح ومحض وقوع . لقد تصدىت لتجاوزات السلطة في وقتها ، ولم ألزم السكوت حتى اليوم لأنكلم ، وكانت لي سلسلة مقالات في حياة جمال عبد الناصر نقدت فيها دور أجهزة الأمن تحت عنوان : « زوار الفجر » ، وكان ذلك تعبيرى الذى شاع وابتذل فيما بعد ٢٢ .

ووقيت في مشاكل عويضة حينما التقدت كتابةً ما تعرض له بعض المعتقلين من الإخوان المسلمين في السجن سنة ١٩٥٦ ، واتصل بي جمال عبد الناصر يقول لي : أنت كنت قاسياً

فيما كتبت وأن شمس الدين بدران الذى كان يشرف على تحقیقات الإخوان المسلمين وفتها غضب وقدم استقالته .

واستطرد عبد الناصر يقول :

- إن شمس الدين بدران يقوم بدور كبير في النظام ، وقد ضايقه أن تهاجمه بهذا الشكل ، وقد كلفت عبد الحكيم عامر بأن يدعوكما أنتما الاثنين اليوم لتسوية المشكلة .
وكتب وألحث على صفحات «الأهرام» وعلى شاشات التليفزيون أدعوه وألتح في الدعوة إلى مجتمع مفتوح يسود فيه القانون ويعرف كل مواطن حدود المسموح به له والمحظوظ عليه ملفاً حتى لا تنقض عليه المفاجآت من المجهول .

أقول ذلك اليوم لا لأنبهى به ولكن لكي يكون واضحاً أن الذين سكتوا - حتى جاء الموت .
إذاء قضية الحرية في مصر لا يحق لهم أن يزايدوا على الذين لم يسكتوا من قبل أن يجيء الموت !!

□ □ □

ومع ذلك فكيف نبحث عن الحقيقة ؟ .

كيف نعرف أنها كانت كما يصفون ، أو أكثر مما يصفون أو أقل مما يصفون ؟
السبيل الوحيد ، وقد ناديت به على هذه الصفحات في شهر يوليو الماضي ، أن يكون هناك تحقيق في كل الحالات التي حدث فيها تجاوز للسلطة .

تحقيق في ظروفها ، وفي وقائعها ، وفي تفاصيلها ، يمسك بها جميراً واحدة واحدة
ويستجلي فيها وجه الحق وينصف كل مظلوم ويحاسب كل ظالم .

أليس ذلك أجدى ؟ ..

أليس هو أجدى من إطلاق الأوصاف والنعيوت شائعة ، ومن إطلاق التهم معممة ، ومن إطلاق
الأحكام بغير حيثيات وبغير فرصة لنقضها ؟
أليس ذلك أجدى ؟ .

ثم أليس هو الحق !؟

□ □ □

ولقد مثلت كثيرة في مصر :

- هل كان جمال عبد الناصر يعرف أو أن هذا كلّه كان خافياً عليه ؟ .

وكتبت أقول :

- قبل أن تستعمل تعبير ، هذا كله ، أليس واجبا علينا أولاً تحديد وتوصيف ، هذا كله ، ١٩

ثم كنت أقول :

- «نعم لقد حدثت تجاوزات .

نعم لقد وصل عدد المعتقلين في مصر في وقت من الأوقات إلى قرابة خمسة آلاف معتقل .

نعم لقد فصل بعض الناس من عملهم بقرارات صدرت .

نعم لقد عذب بعض الناس في سجون مصر .

نعم حدث ذلك .

ولست واحداً من الذين يرضون الدفاع عن ذلك بالقول مثلاً : إن عدد المعتقلين في مصر وصل إلى خمسة آلاف في وقت من الأوقات ... لقد وصل عدد المعتقلين في الهند - مثلاً - في وقت من الأوقات إلى أربعين ألف !

ولست واحداً من الذين يرضون الدفاع عن ذلك بالقول مثلاً : لقد فتح الباب على مصراعيه لقضايا التعويض عن التعذيب ، بل وحرض بعضهم لكي يتقدموا تحريراً ، ومع ذلك فإن عدد كل قضايا التعويض عن التعذيب لم تزيد على ثلاثة قضية منها ثلاثة عشرة في المخابرات معظمها في قضايا جاسوسية !

ولست واحداً من الذين يرضون الدفاع عن ذلك بالقول مثلاً : كم كان عدد الذين فصلوا بقرارات ، لم يزيدوا عن مائتين !

ثم (لننى لست واحداً من الذين يرضون بالدفاع عن ذلك في جملته بالقول مثلاً : لقد كان حجم ذلك كله - مع عدم موافقتنا عليه - هيناً إذا أخذت في الحساب فترة عشرين سنة حافلة بالتغييرات الاجتماعية والاقتصادية .

إن بعض العنف كان حتمياً - مهما كان مكرورها - خصوصاً في عملية استرداد ثروات ضخمة بالإصلاح الزراعي أو التأمين . هذه كلها عمليات لا يمكن تحقيقها بالإقناع والإقناع الديمقراطي .

ذلك كله لم تأت على استعداد لقوله على علاته .

(اعتقال إنسان واحد من غير حق ، وتعذيب إنسان واحد مهما كانت الظروف بينما هو في قبضة سلطة الدولة ، وحرمان إنسان واحد من عمله بغير تحقيق . أشياء كلها كثيرة ، وكلها مرفوضة ، وكلها يجب أن تكون موضع حساب .

موضع حساب ، يجرى بعد تحقيق !

□ □ □

هل كان جمال عبد الناصر يعرف ؟ .

وردُّى هو : نعم عرف في بعض المرات ، وسوف أروي نماذج لذلك في حدود ما رأته عيناً ! .

و قبل أن أدخل في تفاصيل أية وقائع فلا بد أن تنفق على شيء .

ذلك هو أن جمال عبد الناصر كان إنساناً طبيعياً ، لا هو مجنون كـ « نيرون » الذي حرق روما ، وراح يغنى على أطلالها ، ولا هو مثل بطل قصة « دراكولا » مصاص دماء !

ثم إنه كان إنساناً يكره العنف والسلطان ، وتلك شهادة أنور السادات فيه سواء في قصة الملك فاروق أو في قصة الديكتatorية العسكرية .

ثم إنه كان إنساناً يعرف حدود السلطات التي تمسك بها يداه ويستشعر مسؤوليته بها ، وكثيراً ما سمعته يقول :

ـ لا أتخاذ قراراً إذا انفعت ... إذا أحسست بذلك فإنني أنام الليل على قراري ، ذلك أنه بمثل السلطات التي لدى فالتنى لا أملك ولا أتحمل أن أتصرف بانفعال .

ما هو معنى ذلك كله ؟

معناه أنه يجب أن نفترض أن جمال عبد الناصر إذا أشار بتصريف أو سكت على تصرف فإنه يفعل ذلك بناءً على معلومات حقيقة لديه أو معلومات يتصور أنها حقيقة لديه .

أنقل بعد ذلك إلى الواقع .

أبدأ بمسألة الاعتقالات .

أذكر أنني في صيف ١٩٦٥ وهي الفترة التي وصل فيها عدد المعتقلين إلى قرابة خمسة آلاف . أتمنى ذهبت إلى جمال عبد الناصر أقول له :

ـ إن معلوماتنا في « الأهرام » تقول أن عدد المعتقلين خلال الشهر الأخير قد زاد على خمسةألف معتقل ...

وكان رده :

ـ لقد وصلوا الآن إلى سبعمائة مع الأسف ، وأنا أعرف ، ولكن ماذا أفعل ؟
لقد كان بين خطط التنظيم السرى الذى قبض على قيادته خطط بتصف كبارى وجسور والقيام بعملية اغتيالات بالجملة .

ولقد وافقت على اعتقالات واسعة أخذًا بالاحوط لأنني لا أستطيع أن أقبل بتصف كبارى أو جسور ، ثم إن « البلد » لا يستطيع في هذه الظروف أن يتحمل احتمام بعض الناس إلى المسدس يقتلون به من يخالفونهم فى الرأى .. .

ولاحظ هو ترددى وكان قوله :

- مشكنتى أنتى لا أستطيع أن أترد :
أنت كصحفى تستطيع أن تذكر من اليوم إلى الأبد .
ولكن مسؤوليتى عن ، البلد ، تحتم على أن أفكر حتى لحظة معينة ثم أقرر وأتحمل
المسؤولية .

□ □ □

وفي موضوع الفصل بقرارات أتذكر أنتى ذهبت إليه فى حادثتين تصادف أنتى أعرف
أبطالهما ، ومع أنتى كنت أوثر إغفال الأسماء منعاً لأى حرج فإنـى أجازـف وأـحدـدـ الأـسـمـاءـ حتىـ
أـفـطـعـ الشـائـقـ بالـيقـينـ .

أـتـذـكـرـ أـنـتـىـ ذـهـبـتـ إـلـيـهـ مـرـةـ بـعـدـ إـحـالـةـ السـفـيرـ «ـ حـسـينـ عـزـيزـ »ـ الـذـىـ كـانـ وـكـيلـ لـوزـارـةـ الـخـارـجـيـةـ
إـلـىـ الـمعـاشـ بـقـرـارـ مـفـاجـئـ .

وـكـنـتـ وـاحـدـاـ مـنـ الـمـعـجـبـيـنـ «ـ بـحـسـينـ عـزـيزـ »ـ أـرـاهـ مـفـيرـاـ قـدـرـاـ شـدـدـ الجـلـدـ عـلـىـ الـعـلـمـ .
وـقـلـتـ لـجـمـالـ عـبـدـ النـاصـرـ :
ـ أـلـيـسـ غـرـيـباـ أـنـ يـحـالـ رـجـلـ مـثـلـ حـسـينـ عـزـيزـ عـلـىـ الـمـعـاشـ بـغـيرـ سـبـبـ؟ـ
وـفـوجـتـ بـهـ يـقـولـ :

ـ لـقـدـ وـافـقـتـ عـلـىـ الـقـرـارـ وـكـانـ لـهـ سـبـبــ .

وـكـانـ السـبـبـ رـسـالـةـ مـنـ «ـ جـواـهـرـ لـالـنـهـرـوـ »ـ رـئـيسـ وـزـراءـ الـهـنـدـ وـقـتهاـ يـقـولـ فـيـهاـ أـنـ قـرـأـ تـقـرـيرـاـ
لـسـفـيرـ الـهـنـدـ فـيـ الـقـاـهـرـةـ عـنـ مـقـابـلـةـ لـهـ مـعـ وـكـيلـ وـزـارـةـ الـخـارـجـيـةـ الـمـصـرـيـةـ وـرـأـيـ أـنـ وـكـيلـ الـخـارـجـيـةـ
الـمـصـرـيـةـ فـيـ حـدـيـثـهـ مـعـ سـفـيرـ الـهـنـدـ أـبـدـيـ آرـاءـ مـتـعـارـضـةـ مـعـ سـيـاسـةـ مـصـرـ كـماـ يـفـهـمـهـاـ هـوـ ..
بـلـ أـنـ وـكـيلـ الـخـارـجـيـةـ كـانـ قـاسـيـاـ فـيـ نـقـدـهـ لـخـطـوـتـ السـيـاسـةـ الـمـصـرـيـةـ وـكـانـ فـيـ حـدـيـثـهـ يـعـرضـ
بـهـ صـرـاحـةــ .

وـكـانـ رـأـيـ «ـ نـهـرـوـ »ـ أـنـ مـصـرـ لـابـدـ أـنـ تـتـحدـثـ بـصـورـتـ وـاحـدـ ،ـ وـأـنـهـ لـاـ يـهـمـهـ أـنـ ذـلـكـ خـدـيـثـ
كـانـ مـعـ سـفـيرـ الـهـنـدـ وـهـوـ سـفـيرـ دـوـلـةـ صـدـيقـةـ وـلـكـنـ يـخـشـىـ مـنـ مـثـلـ ذـلـكـ مـعـ سـفـراءـ دـوـلـ أـخـرـىـ لـيـسـ
صـدـيقـةـ وـلـيـسـتـ مـتـفـهـمـةـ لـسـيـاسـةـ الـمـصـرـيـةـ .

وـقـالـ لـىـ جـمـالـ عـبـدـ النـاصـرـ بـعـدـهـ :

ـ إـذـاـ كـانـ لـدـيـهـ اـعـتـراـضـ عـلـىـ سـيـاسـةـ الـمـصـرـيـةـ فـقـدـ كـانـ يـجـبـ أـنـ يـتـحدـثـ فـيـ ذـلـكـ مـعـ وـزـيرـهـ
الـدـكـتـورـ مـحـمـودـ فـوـزـىـ .ـ وـإـذـاـ لـمـ يـقـتـنـعـ بـهـاـ بـعـدـ حـدـيـثـهـ مـعـ الدـكـتـورـ فـوـزـىـ فـلـقـدـ كـانـ عـلـيـهـ أـنـ يـطـلـبـ
نـقلـهـ مـنـ مـنـصـبـهـ أـوـ يـسـتـقـيلــ .

ـ أـمـاـ أـنـ يـرـسـمـ بـنـفـسـهـ سـيـاسـةـ تـخـتـلـفـ عـلـىـ سـيـاسـةـ الـحـكـومـةـ وـيـنـتـقـدـهـ مـعـ سـفـيرـ أـجـنبـيـ فـهـذـاـ
ـ مـاـ لـاـ يـمـكـنـ قـيـوـلـهــ .

وبصرف النظر عن الصواب والخطأ فقد كان ذلك هو الجو الذي تصرف فيه والمنطق الذي تصرف منه ، والغريب أن « حسين عزيز » فى عهد جمال عبد الناصر لجأ إلى مجلس الدولة وصدر له حكم بإعادته إلى الخدمة ولم يكن فى استطاعة الحكومة أن تقدم السبب الحقيقي لمجلس الدولة لأن ذلك كان من شأنه إفشاء أسرار مراسلات بين عبد الناصر و « نهرو » ! وأما الحادثة الثانية فقد كان بطلها السيد « أحمد أبو العلا » نائب محافظ البنك المركزى وقد صدر هو الآخر قرار بإحالته على المعاش .

و كنت أعتبر « أحمد أبو العلا » واحداً من أذكي الاقتصاديين فى مصر وكانت دهشتي شديدة لقرار إحالته على المعاش ومرة أخرى فتحت موضوعه مع جمال عبد الناصر .
كان يعرف بالقرار وكان قد وافق عليه .

والسبب أن أحد المسؤولين فى السفارة البريطانية كان موضوعاً تحت الرقابة لأسباب معينة .
وذات مرة فى مجلات المراقبة عليه وردت تفاصيل مكالمات تليفونية له مع « أحمد أبو العلا » ،
وخلال الحديث بينهما على التليفون قال المسؤول البريطانى :
- إن معلوماتنا أن حالتكم الاقتصادية سيئة .. معلوماتنا أن أرصدمكم من النقد الأجنبى
لم تعد تزيد الآن على عشرة ملايين جنيه ، ..
وجاء رد « أحمد أبو العلا » :

- الموقف أسوأ من ذلك .. أمامي الآن آخر التقارير عن أوضاعنا .. رصيدها الآن
لا يزيد عن مليونين وربع !

ويمعرفنى « بأحمد أبو العلا » ، فلقد تصورت أنه شارك فى الحديث كله بحسن نية ، وأن
رده لم يكن إفشاء لسرّ دولة وإنما كان نوعاً من « الدردشة الاجتماعية » ، ولكن جمال عبد
الناصر كان له رأى آخر .

و سواء اتفقت أو اختلفت معه فقد كان ذلك هو الجو الذى تصرف فيه ، والمنطق الذى تصرف
منه .

□ □ □

أصل إلى موضوع التعذيب .

أذكر أنتى كنت أول من ذهب إلى جمال عبد الناصر بقصة ما حدث للدكتور « شهدى عطيه » ،
فى أحد السجون المصرية فقد ضربه أحد سجانيه بقدمه ، وجاءت الضربة فى موضع أدت إلى
وفاته .

وكان « شهدى عطيه » من أصدق وأخلص أقطاب الحركة الشيوعية فى مصر .
وأشهد أن ثورة جمال عبد الناصر على ما سمع منى كانت ثورة عارمة .

رفع التليفون واتصل بوزير الداخلية وقتها وروى له ما سمع مني ثم أضاف بالحرف تقريراً :

ـ إذا كان ذلك يمكن أن يحدث في عهد الثورة فالأشرف والله أن نفضّلها ، ونعود إلى بيوتنا .. والله يصبح عهد الملك فاروق أحسن ، .
وطلب جمال عبد الناصر تحقيقاً وطلب حسابة .

وكان مدير مصلحة السجون نفسه أول الضحايا ، فقد أحيل إلى المعاش بعد ثلاثة أيام .
وأذكر أن الدكتور عبد المنعم الشرقاوى جاعنى بقصة ما حدث له أثناء اعتقاله ، واتصلت بجمال عبد الناصر أروى له ما سمعت وأقول بعده :
ـ إننى أنوى نشر القصة ، فمثل ذلك لا يجوز السكوت عليه ، .

وقال جمال عبد الناصر على الفور :
ـ بيدك الحق .. أنشر حتى يعرف هؤلاء جميعاً أنه ليست هناك حماية لأحد فوق القانون ، .

□ □ □

أروى هذه الوقائع كلها وأنذكر واقعة واحدة تشملها جميعاً .
أنذكر أن الأستاذ توفيق الحكيم جاءنى ذات يوم بقصة كتبها تحت عنوان ، بنك القلق ، ، وقال لي الأستاذ توفيق الحكيم وهو يسلمنى القصة :
ـ ليست قصة للنشر .. ولكن لترأها فقط ، .
وقرأت القصة وكانت نقداً شديداً لكل أوضاع تجاوز السلطة .. المخابرات والإعتقالات ..
والحراسات ، إلى آخره .
وقررت أن أنشر .

وصدر الفصل الأول من القصة فعلاً وقامت القيامة .
وأتصل بي جمال عبد الناصر يقول لي أنه لم يقرأ ما نشرناه من قصة الأستاذ ، توفيق الحكيم ،
ويطلب عند ذهابى إليه نسخة مما نشر لكي يقرأها لأن كثيرين احتجوا لديه على نشرها .
وذهبت إليه بما نشرناه وكان عبد الحكيم عامر معه ، ولم أكُد أدخل حيث كانوا يجلسان حتى
راح عبد الحكيم عامر يهاجم نشر القصة ويطلب وقف بقية فصولها ، لأنهم جميعاً يعتبرونها
تعريضاً بهم ، .

وقلت له : من هم الغاضبون ؟
ونذكر أسماء رجال أقوياء على قمة أجهزة الأمن وقتها .

وأمسك جمال عبد الناصر بفصل القصة المنشور الذي جئته به معى وقال لعبد الحكيم عامر :
- «انتظر حتى أقرأ» .

وراح يقرأ وعبد الحكيم عامر ينظر إلى بين الوقت والأخر وبهذا رأسه رفضاً ، وأنا أهز له رأسى أن أنتظر .

وفرغ جمال عبد الناصر من فرامته ثم التفت إلى يقول :
- «إليها قاسية» .

وقفز عبد الحكيم عامر إلى الفرصة يقول :
- «يجب وقف نشرها ...» .

والتفت إلى ناحية جمال عبد الناصر فإذا هو يقول بصدق وأصالة :
«... إن توفيق الحكيم استطاع في العهد الملكي أن ينقد المجتمع المصري في كتابه « يوميات نائب في الأرياف » ، ولا أتصور في عهد الثورة أنه لا يستطيع أن ينقد ما يراه مستحقاً للنقد في حياتنا » .

ونشرت القصة كاملة .. حلقات بعد حلقات .

[[[

إلى أين أصل من هنا ؟

أصل لكي أقول نعم لقد حدثت تجاوزات .

ونعم كان هناك جو ومنطق وراء التصرفات .

ونعم كان هناك الخطأ والصواب .

ولكن الطريق السليم لمعرفة الحقيقة هو التحقيق في كل حالة .. واحدة بعد واحدة .
ولست أطلب ذلك إنصافاً لجمال عبد الناصر .

ولكنني أطلب إنصافاً للضمير المصري ، لكي لا نحمل الشعب المصري « عقدة ذنب » ، كذلك التي تحملها الشعب الألماني حينما سأل نفسه بعد الحرب العالمية الثانية قائلاً :
- « وأين كنا نحن حينما كان ذلك يجري كله تحت أعلام النازى » .

إن الشعب المصري لا ينبغي تحويله ، بعقدة ذنب ، تضاد إلى أثقاله (لا إذا كان مطلوبها كهدف تقدير حركة الشعب المصري ، بعقدة ذنب ، تصدده مستقبلاً عن طلب الحرية الإجتماعية لأن ثمنها على الحرية السياسية باهظ وفادح !!

الحادي
السادس

نيران الم Raz Al طبقى
من أشعلها فى مصر

ويُئْهِم جمال عبد الناصر بِيَنَ ما يُئْهِم به الْيَوْم فِي مِصْر أَنَّه أَشْعَل نِيرَانَ الْمُرْسَلِ الْطَبِيقِيِّ فِي مِصْر ، وَأَثَارَ الْحَقْدَ وَالْبَغْضَاءَ وَالْحَسْدَ بَيْنَ الْأَغْلِيَاءِ وَالْفَقَرَاءِ ، فَلَمْ يَصْبِح هُؤُلَاءِ آمِنِينَ بِمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، وَلَا أَصْبَحَ أُولَئِكَ رَاضِيَنَ بِالْقِسْمَةِ وَالنَّصِيبِ !

وَتَتَبَرَّرُ هَذِهِ التَّهْمَةُ - ١ - سُؤَالَيْنِ :

● هل الصراع الطبقى فى مصر . أو فى غير مصر . ظاهرة اخترعها جمال عبد الناصر ولفقها ؟ أم أن الصراع الطبقى باعتراف الدنيا كلها . غرباً وشرقاً . واحد من أهم عوامل الحركة التاريخية وقانون من قوانينها ؟

● وهل كانت مصر . قبل جمال عبد الناصر . آمنة سالمية من تفاعلات الصراع الطبقى كأنها لمؤلفة في صدفة مغلقة نائمة مع أحلامها في أعماق البحر بعيدة عن العالم وعن التاريخ ؟ أم أن الصورة الحقيقة كانت أبعد ما تكون عن هذه اللوحة من لوحات السلام الأبدى ؟

□ □ □

الرد على هذين السؤالين : صورة واحدة هي صورة القاهرة المحترفة في مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

كانت العاصمة التي أكل اللهيب قلبها وحوله إلى أنقاض متداعية ورماد . هي التصوير البشع لحدة الصراع الطبقى فى مصر وضراؤته . وبصرف النظر عن الفاعل المجهول الذى أشعل الشرارة الأولى فى هذا الحريرق فإن الجماهير المحرومة هي التى تولت بعد ذلك تزكية النار وتتجيجهما إعلاناً لغضبها ورفضها للقسمة والنصيب معتبرة أن الحberman ليس فرداً خصها الله به ، وإنما هي قسر يفرضه عليها القابدون !

ولم يكن حريق القاهرة صورة واحدة ، لم تسبقها صور ولم تلتحقها صور في فيلم تحطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر الحديثة .

قبلها كانت هناك صور تعمد للمشهد المخيف في ٢٦ يناير.

وبعدها كانت هناك صور تتداعى من هذا المشهد وتنوّاصل بعده .

... وقيلها كانت هناك تراكمات فوق تراكمات .

- النهب الذى حدث للأرض الزراعية فى مصر طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين : نهب احتكره الأسرة المالكة فى البداية ، ثم أباحت تصييرأ منه للمراببين الأجانب ، ثم سمحت لطبقة مصرية معينة أن تشاركها فى جزء منه فى ظروف كلها قابلة للطعن محظة بما يستوجب الريب والشكوك .

● قيام اقتصاد تجاري وصناعي ناشيء ومحدود في مصر - على أساس فائض مدخلات الملكية الزراعية وفي يد أصحابها - وكان هذا الاقتصاد عاجزاً بسبب ارتباطه بالمصالح الأجنبية الكبرى خصوصاً في أوروبا وذلك عن طريق البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية في الصادرات والواردات وكانت كلها في يد مجموعات الإنجليز والفرنسيين والسويسريين والبلجيكيـ الأمر الذي دعا اقتصادياً بالرزا كالدكتور عبد الجليل العمرى الذى تولى وزارة المالية بعد الثورة أن يقول في وصف الحالـة :

- لقد كان الاقتصاد المصرى كبقرة ترعى فى أرض مصر ولكن ضروعها كانت كلها تحلب فى خارجها .

- تفاقمت الأوضاع الاجتماعية في ظروف الحرب العالمية الثانية وذلك بأرباح السوق السوداء في يد جماعات من «الشطار» انتهوا الفرصة السانحة وضاغعوا وسط ظلام الحرب أرباحهم وثرواتهم.

ثم زادت الحالة تفاصلاً في المتنتين السابقتين على ثورة ١٩٥٢ لأن قيام الحرب الكورية واندفاع الولايات المتحدة إلى تكثيف مخزون من المواد الإستراتيجية تحسباً لقيام حرب عالمية . رفع أسعار القطن وذهبت الأرباح كلها إلى أيدي السماسرة والمضاربين وشركائهم على قم السلطة وفي قيادات الأحزاب .

● وعبرت التناقضات الاجتماعية المتزايدة في حذتها عن نفسها بسنوات من القلق في مصر امتدت من وسط الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ إلى منتصف سنة ١٩٥٢ ، وكان القلق شاملًا للمدينة والريف في مصر طوال عشر سنوات مشدودة ومتوترة .

في المدينة تلحت حوادث الإغتيال السياسي لرؤساء الوزارات - أحمد ماهر و محمود فهمي والنقراني مثلًا . وباغتيال الوزراء والشخصيات - أمين عثمان والشيخ حسن البنا مثلًا . وباغتيال مسؤولي الأمن بل ومسؤولي القانون - سليم زكي حكمدار القاهرة والقاضي أحمد

الخازنadar الذى أصدر أحكاماً فى قضايا كان المتهمون فيها من الإخوان المسلمين مثلاً . وفوق ذلك كانت القنابل تدوى فى دور السينما وفى أماكن المهر واللهو وفى الشوارع تنصيب أول عابر سبيل !

في الريف كانت النار تحت الرماد وكانت تهب أحيااناً فيعلو نهيبها حريراً في قصور كبار المالك كما حدث في قصر البدراؤى فى « بهوت » ، وكما حدث في دائرة الأمير محمد على ولى العهد في ذلك الوقت - على سبيل المثال .

• ثم كانت مذبحة البوليس في الإسماعيلية قبل أيام من حريق القاهرة - مأساة حزينة تكشف عن عجز النظام المصرى كله عن إدارة الصراع الوطنى سواء على صعيد الناحية السياسية أو على صعيد الناحية الاجتماعية ، وسقط صولجان السلطة على الأرض متهاكاً مهزوماً .
واشتعلت عاصمة الدولة واستبيح قلبها المحترق لكل من يريد أن يخطف غنيمة من وسط الركام !

□ □ □

... وبعد الحريق تداعت الصور .

لم تعد المشاهد المتلاحقة تستغرق السنين وإنما أصبح الحساب بالأيام وبالساعات ، كأنه سباق زادت سرعة المشتركين فيه بقرب نهاية الشوط ، يحسن بها الجميع ولن لم يستطع أحد منهم أن يحدد متى تجيء لحظة الحقيقة ، لكن الكتابة - كما يقولون - كانت على كل الجدران !

• أعلنت حكومة الوفد فرض الأحكام العرفية مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ وبعد ساعة واحدة تلقى رئيسها مصطفى النحاس خطاب إقالته بتوجيه الملك فاروق .

• وتشكلت وزارة برئاسة على ماهر لكنه شهر واحد ثم سقطت الوزارة .

• وكلف نجيب الهلالي بتشكيل وزارة جديدة أعلن قيامها على أساس التطهير أولأ ثم التحرير ، وبدأ يحقق في فضائح المضاربات على القطن وبدأ يطالب أحمد عبود باشا بضرائب متأخرة عليه بلغت قيمتها ١١ مليون جنيه أوشك أن تسقط عنه بالتقادم بعد شهر واحد إذا لم يدفعها فعلاً أو لم يطالب أمام المحكمة بدفعها ، واختصر أحمد عبود طريقه فدفع للملك فاروق مليون دولار في سويسرا لكي يخرج نجيب الهلالي قبل أن يستوفي حق الدولة أو يطالبه أمام المحاكم به فيحفظ بذلك الحق من أن يسقط بالتقادم خمس سنوات .

ومنقطت وزارة نجيب الهلالي قبل أن تقترب من التطهير أو من التحرير .

• وجىء بحسين سرى وهو عضو دائم فى مجالس إدارات شركات أحمد عبود ليرأس الوزارة ولكن الغليان المكتوم كان يرج المسرح السياسي رجأ وكانت المدافعة الرشاشة مازالت تدوى في أجواء القاهرة والقنابل تنفجر على أرصفتها ، وكانت دقات النبض السياسي للجيش تبدو مسموعة من خلال انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط حيث سقط كل مرشحى القصر

ونجح آخرون بعد أن ساندهم تنظيم سرّي في صفوفه صدرت عنه قبل ذلك وخلاله منشورات باسم ، الضباط الأحرار .

● وسقطت وزارة حسين سري بحركة ارتجاج المسرح السياسي ذاتها وأعيد نجيب الهلالى إلى رئاسة الوزارة مرة أخرى يوم ٢١ يوليو ١٩٥٢ .
يوم ٢٣ يوليو قامت الثورة .
وجاء جمال عبد الناصر .

جاء جمال عبد الناصر والصراع الطبقي في مصر على أشده حريراً ودماء .
لم يشعل ناره إذن ولم يزد حضاره ، ولا اخترعه من عندياته أو لفق مظاهره تلغيقاً .
بل لعلى أقول إن جمال عبد الناصر فعل عكس ذلك تماماً فقد أطfaً الحريق وحقن الدم - حين وجد صيغة معقولة للتحول الاجتماعي وكانت مفاتيحها على التحو التالى :

١ - لقد أدرك أن الصراع الطبقي قانون من قوانين الحركة الاجتماعية لا يمكن إبطال مفعوله ولا تجميد تفاعله وأن الفقراء حقوقاً لا يستطيع الأغنياء حبسها .

٢ - إن مخاطر الصراع الطبقي تزداد بعده ما تتزايد وتتسع الفوارق بين الطبقات ، وفي حالة مصر فإن الفجوة شاسعة ، ومن ثم فإن الخطر داهم .

٣ - هناك مأذق يواجه الشعوب النامية الواقعة تحت سيطرة المستعمار واحتلاله ، وهذا المأذق يتمثل في أنها تحتاج إلى وحدتها الوطنية الكاملة في مواجهة المستعمار الخارجي ، وفي نفس الوقت فإن الصراع الطبقي داخلها يقطع ويفصل .

وذلك ما عبر عنه جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة في يناير ١٩٥٣ في حديثه عن التصادم بين ضرورات الثورة السياسية ضد المستعمار وضرورات الثورة الاجتماعية ضد الاستغلال .

٤ - استطاع جمال عبد الناصر أن يستوعب حقائق عصره ، وأول هذه الحقائق أن الحرب الباردة هي في صميمها صراع بين كتلتين دوليتين كل منها مسلحة لا بالقبضة التالية وحدها ، ولكن قبل القبضة بعقيدة اجتماعية معينة .

وبما أنه ليس هناك جزء في العالم يستطيع أن ينسليخ عن الكل خصوصاً بثورة التكنولوجيا وبالذات في مجال المواصلات . إذن فإن الحرب الباردة لا يمكن صدّها عند أية حدود دولية .. إنها كظواهر الجو لا تعترف بخطوط الأسلام الشائكة ولا حتى بحقول الأنقام .

ثم إن الحرب الباردة تسبق على النفوذ ميدانه الأرض المفتوحة خارج نطاق الكتلتين العسكريةن !

٥ - إن ترك الصراع الطبقي إلى نهايته سوف يلطم التراب الوطني بالنار والدم وسوف يؤدي لا محالة إلى الحرب الأهلية بين القراء والأغنياء . وإذا وقعت الحرب الأهلية في وطن من الأوطان في هذا العصر الذي تهب فيه رياح الحرب الباردة ، فليس هناك ضمان يحول دون تنويعها ، بواسطة التنافس والتسايق بين معاشرين دوليين وكثليتين عالميتين كل منها في الحقيقة عقيدة اجتماعية مسلحة .

ومثل ذلك حدث أمام عيون الناس في أسبانيا .

تفاهمت فيها حدة الصراع الاجتماعي إلى حد الحرب الأهلية ، ثم تحولت الحرب الأهلية إلى صراع دولي .. سعياً اجتماعياً ميدانياً أسبانياً .

واشتعلت أسبانيا كلها بالنار ونزفت دمها سنوات بعد سنوات .

وانتقل مصيرها من يد شعبها فأمسكت به موازين دولية خارج إرادته ، ثم نزل الستار على المأساة الأسبانية بسيطرة قوى الفاشية فيها تعبيراً عن أوضاع عالمية لا علاقة للشعب الأسباني بها .

□ □ □

بهذه المفاتيح في يده ، وبالتجربة والممارسة ، وبثقة شعبية أسطورية فيه تأكّلت خلال حرب السويس وبانتصارها - توصل جمال عبد الناصر إلى حل جديد جعل من التجربة المصرية كلها ظاهرة باللغة الأهمية في التحول الاجتماعي بغير عنف دموي ، وفي التنمية الاجتماعية عن غير الطريق الرأسمالي .

استطاع أن يصنع شيئاً لا مثيل له في غير التجربة المصرية ... شيئاً أسميناه . وما أظنتنا شططنا - « **تأميم الصراع الطبقي** ! »

كانت عناصر هذه التجربة كما يلى :

١ - سلطة وطنية تقدمية .

٢ - هذه السلطة تقوم باسترداد كل المصالح الوطنية المنهوبة للإستغلال الأجنبي (قناة السويس - البنوك - شركات التأمين . التجارة الخارجية ، إلى آخره) .

٣ - تتجه هذه السلطة بعد ذلك إلى تصفية موقع الإمتيازات الطبقية التي تراكمت في ملكية الأراضي الزراعية ، وفي ملكية الشركات الصناعية والتجارية التي تعيش على الحماية الجمركية وبالأعيوب التحايل على القالون ، وفي ملكية الأراضي العقارية .

هكذا صدرت قوانين الإصلاح الزراعي وقوانين تأميم البنوك ثم قوانين التأمين الواسعة في يونيو ١٩٦١ ، ثم لحقت بها قرارات الحرامة وكانت تستهدف أصلاً مطاردة الثروات الفادحة التي استطاعت أن تنقلت من قوانين الإصلاح الزراعي ومن قوانين التأمين في يونيو ١٩٦١ .

(ولقد أسلم بوجود بعض التجاوز في قرارات فرض الحراسة في مرحلة لاحقة ، خصوصاً بعد سنة ١٩٦٧ ، لكن التجاوز شيء يمكن تصحيحته ، وأما العبد الأصلى فشيء آخر لا يمكن الحكم عليه بغير المنطق الذى صدر منه) .

٤ - إن السلطة الوطنية التقدمية راحت تتدفع بعد ذلك إلى عملية تنمية اقتصادية شاملة عن طريق التخطيط في نفس الوقت الذي كانت فيه تدير عملية إعادة توزيع واسعة النطاق تكفل نقل الثروة - القديمة بالترافق والجديدة بالتنمية - باستمرار من متناول وسيطرة القادرين إلى متناول وسيطرة المحروميين ، وذلك عن طريق إتاحة فرض التعليم والعمل لأوسع الجماهير ، ثم عن طريق مظلة الخدمات والتأميمات ، ثم السيطرة على أسعار الغذاء ولو عن طريق الدعم ، والسيطرة على أسعار الإسكان بعديد من الوسائل المتاحة بينها تخفيض الإيجارات في المباني القائمة والتدخل لتحديد其 بلجان تقدير الإيجارات في المباني الجديدة .. إلى جانب المشاركة في إدارة عملية الإنتاج وفي اقسام فائض ريعها .

٥ - من هذا التركيب الاقتصادي الاجتماعي الفوار بالحيوية نشأت فكرة التحالف بين قوى الشعب العاملة ، له السيطرة على وسائل الإنتاج ولو السلطة السياسية التي يدير بها العمل الوطني كله في اتجاه التنمية الشاملة باستمرار وتذويب الفوارق بين الطبقات باستمرار أيضاً .

ثم إن هذا التحالف وحده هو الذي يستطيع أن يحمي الاستقلال الوطني ، ويسعى للوحدة العربية ، ويحقق التضامن مع حركة الثورة الوطنية على كل أرض ومع كل شعب .

هذه هي العناصر الأصلية في التجربة ، وبعدها يجيء المسؤال :

- هل نجحت هذه التجربة عملياً .. أو هي لم تنجح !؟

أزعم أنها نجحت ، وسوف أعدد أسباب ذلك في ظلّي فيما بعد ، ولكنني أستطرد من هنا إلى نقطة متصلة بها مثاره في مصر الآن بشأن مستقبل العمل السياسي عن طريق ما أسموه أولاً بلجنة المنابر ، ثم عادوا فغيروا اسمه بعد ذلك إلى لجنة مستقبل العمل السياسي في مصر .

□ □ □

يتسائلون في مصر الآن :

□ ، منابر داخل الاتحاد الاشتراكي ثابتة أم متحركة ؟

أحزاب أو لا أحزاب ؟ ،

تنسى الأصل أحياناً ونمسك بالشكل .

ننسى أن العمل السياسي في النهاية تعبير عن حقائق اقتصادية اجتماعية بالدرجة الأولى .
ننسى أن الحزب هو في حقيقته طبقة سياسية لطبقة اقتصادية اجتماعية ، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر ، لأنه لا يجتمع على الهدف الواحد إلا أصحاب المصلحة الواحدة .

وننسى أن صيغة التحالف بين قوى الشعب العاملة لا سند لها في الحقيقة والواقع إلا فكرة إدارة الصراع ملمساً بين طبقات لا تتفاوت الفوارق بينها إلى درجة القطيعة ، ثم إنها تسعى عن طريق التنمية وإعادة التوزيع - الكفاية والعدل كما كانا نسميهما - إلى تنويب الفوارق بين الطبقات .
ومن هنا فإن **الحقيقة الاقتصادية الاجتماعية هي التي تصنع التعبير السياسي عن نفسها وليس العكس** .

وبالتالي فإن لجاج صيغة التحالف مرهون تماماً بما كانا نسميه « تأمين الصراع الطبقي » .
وأخشى أن بعض ما يحدث في مصر الآن سوف يؤدي - أردا ذلك أو رفضناه - إلى ظهور أحزاب .

وليس ذلك شيئاً أدعوه إليه كضرورة ... وفي نفس الوقت فليعن شيناً أرفضه كمبدأ .
إن الأحزاب سوف تظهر لأن تأمين الصراع الطبقي يجري فيه الآن في مصر سواء كان ذلك بخطيط مسبق أو كان فعل مصادفات ساقتنا إليها ملابسات .
لماذا ؟

لأن طبقة جديدة تظهر الآن في مصر نتيجة لما نطلق عليه سياسة الإنفتاح ، وتكدّس بسرعة ثروات هائلة ، وتبنى لنفسها موقع متميز باستغلال ظروف سائحة !
هذه الطبقة الجديدة مكونة من عنصرين :

- بقايا من عناصر الطبقة القديمة في مصر ، وهي ليست العناصر الأصلية في تلك الطبقة القديمة ، وإنما جماعات كانت تعيش على هامشها وفي خدمتها .
- ثم جماعات وافدة جديدة هبطت عليها الثروة من السماء مفاجأة ، وفي الحقيقة فإن غنى هذه الجماعات جاءها من مصادرين :

□ الأول - هو المضاربة في الأراضي العقارية التي ارتفع سعرها بشكل فاحش في مصر نتيجة لعوامل كثيرة .

وال المشكلة في الثروة الناشئة من المضاربة في الأراضي العقارية إنها تصنع غنى فادحاً لدى بعض الأفراد بغير أن تضيف شيئاً إلى الثروة القومية للمجتمع !

□ والثاني - هو الإشتغال بعمليات المسربة والتهريب الظاهر أو المستتر وراء ألوان من النشاط مشروع أو تبدو مشروعه وهي في الحقيقة نوع من « الإباحية الاقتصادية » .

وتقدير الخبراء أن هناك خمسماة مليونير جديد في مصر خلال العقدين الأخيرين - والرقم منقول عن تحقيق لهنرى تاير مراسل نيويورك تيمس في مصر . وتقدير الخبراء أيضاً أن مائتين من هؤلاء جاءت ثرواتهم من الزيادة في أسعار الأراضي العقارية ، ثم إن باقي أصحاب الملايين الجدد جاءتهم الثروة عن الطريق الثاني ... طريق الإباحية الاقتصادية !

والطبقة الجديدة تضغط ضغطاً فاحشاً على الاستهلاك إلى حد البداءة .

والطبقة الجديدة تضغط على القطاع العام لأنها ت يريد تكمير ضلوعه .

ثم إن الطبقة الجديدة هي القوة الحقيقة وراء الحملة الضاربة على التجربة الوطنية التقدمية في مصر .

تحاول تهديم منجزات عبد الناصر حتى لا يبقى لها ذكر أو أثر ، ثم تحاول الفصل بين عهده وعهد أنور السادات تتصور بذلك أنها تستطيع تطبيق مسؤوليته عن قيادة التجربة ، وأخيراً تحاول تكبيل جماهير الشعب المصري في « عقدة نسب » بحجة أنها ضيّعت وغيّبت بانقيادها الأعمى لسحر جمال عبد الناصر !

وال المشكلة أن الطبقة الجديدة لا يمكن انتemanها على قضية من قضايا العمل الوطني .

لا هي مؤمنة على قضية التراب الوطني ، ولا هي مؤمنة على قضية التحول الاجتماعي .

والطبقة المصرية القديمة الأصيلة . مثلاً . كانت في ظلّي أقدر منها وأشرف على الأقل في قضية التراب الوطني وإن جاز لنا أن نشك في أمانتها على قضية التحول الاجتماعي . لماذا ؟

لأن تلك الطبقة القديمة كانت تعيش على ملكية الأرض الزراعية وكانت الأرض الزراعية تمنحها إحساساً بالإلتئام إلى الطين المصري .

وأما الطبقة الجديدة فليس لها في مصر إلا أنابيب تسرب منها الثروة وتتدفق أولاً خارج مصر .

بل إن هذه الطبقة - في معظم الأحيان - واجهة أو وكالة لمصالح أجنبية تعمل خارج مصر وليس لها هم إلا أن « تشطف » ما تستطيع أن تصسل إليه في مصر .

ومع نمو هذه الطبقة وتمرّزها في مواقع الإستغلال والإمتياز الطبقي يوماً بعد يوم فإن بقية الطبقات في مصر سوف تجد نفسها مضطرة إلى الدفاع عن مصالحها ولو اقتضتها الأمر أن تخرج عن صيغة التحالف التي تصبح في تلك الحالة قياداً يحمد حركتها وليس إطاراً يتسع لها .

وإذن ينفك تأميم الصراع الطبقي ...

وإذن تعود إليه الحدة والتوتر ...

وإذن يزداد الخطر بمقدار ما تتسع الفوارق .

ويجري اللعب بالكيريت قرب مخزن البارود .

ومع ذلك يُتهم جمال عبد الناصر بأنه أشعل نيران الصراع الطبقى في مصر وبأنه أثار الحقد والبغضاء والحسد بين الأغنياء والفقراة .

وكان المتتبّي هو الذي قالها قبل ألف سنة :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنها ضحك كالبكا !!

العنبر
الساج

**هل وزع الفقير
وخلف وراءه تركية مشتهة ؟**

و عند الذين يهاجرون جمال عبد الناصر ، بالحق والباطل ، أذعاء يوجهونه إلى أى حجة تساق
لهم ، دليلاً وبرهاناً ..

يقال لهم :

. لقد أعاد توزيع الثروة والدخل .

وردهم الجاهز باستمرار :

- وزع ، هذا صحيح ... ولكن ماذا وزع ؟

لقد وزع الفقر ، وذهب وخلف ورائه تركيبة من الخراب كان الله في عون من آلت إليه ؟!
والسؤال الذي أريد أن أتعرض له اليوم هو بالضبط هذا السؤال :
هل وزع جمال عبد الناصر اشتراكية الفقر بدلاً من اشتراكية الغنى - ١ - وهل ترك ورائه
خراباً لا يصلح إلا للبوم والغربان تتلوح على أطلاله ؟
سؤال يستحق أن يجاب عليه .. وأحاول .

ولكنني قبل أن أفعل ، ألتمن العذر مقدمًا إذا استعملت كثيراً من الأرقام . والأرقام بطبعتها
جافة رغم أن لها قدرة على البيان لا تضارعها فيها وسيلة أخرى من وسائل التعبير .

لقد بدأت تجربة التنمية في عصر عبد الناصر بخطوة تبدو الآن مرتجلة ، لكنها في
الحقيقة كانت الخيار الوحيد المطروح أمامه وقتها .

كان يشعر بأهمية التنمية شعوراً غريزياً ، أقصد ذلك الشعور الذي يولده الإحساس بالحاجة
إلى شيء في اتجاه معين ، دون أن تكون هناك دراسة كاملة لهذا الشيء ، وتحديد دقيق لهذا
الاتجاه .

وأحس أنه إذا انتظر حتى تكتمل الدراسة ، وحتى يتم التحديد الدقيق للإتجاه ، فإن وقتنا ثميناً سوف يضيع .

وفي نفس الوقت ، فإنه لم يكن يثق في الجهاز الحكومي الذي ورثته الثورة من العهد الملكي .

ومن هذا كله تحرك في ثلاثة اتجاهات على طريق التنمية :

١ - جاء بالمشروعات التي وردت في وعود وزارات ما قبل الثورة أثناء خطب العرش ، واعتبر أن هذه المشروعات درست بما فيه الكفاية ، وأنشأ مجلساً أعلى للإنتاج خارج إطار الجهاز الحكومي ، وضم فيه مجموعة من أبرز خبراء مصر الاقتصاديين قبل الثورة ، وممن لم تتحقق بسمعتهم شوائب ، وجعل على رأسهم حسين فهمي ، وهو اسم من أمع الأسماء الاقتصادية وقتها ، وكان قد تولى وزارة المالية من قبل ، إلى جانب إسهامه في إنشاء كثير من المشروعات في السنوات السابقة .

ووضعت تحت تصرف مجلس الإنتاج كل المبالغ التي أمكن توفيرها له لرصدتها للتنمية ، ووصلت هذه المبالغ إلى أكثر من ألف مليون دولار ، وكان بين أبرز المشروعات التينفذت بإشراف مجلس الإنتاج : مصنع حديد حلوان ، ومصنع السماد في أسوان ، وكهرباء خزان أسوان ، وكهرباء خط حلوان .. إلى آخره .

وفي نفس الوقت ، كان جمال عبد الناصر قد أنشأ مجلساً أعلى للخدمات خارج إطار الجهاز الحكومي أيضاً ، ووضع على رأسه فؤاد جلال ، وطلب أن يحول إليه كل ما صودر من ثروة الملك السابق ومن أملاك الخاصة الملكية ، وقد بلغت قيمتها في ذلك الوقت سبعين مليون جنيه ، وقد نفذت بها مشروعات الوحدات المجمعة للصحة والتعليم ، وإعادة التدريب والإرشاد الزراعي في الريف ، إلى جانب سلسلة المستشفيات المركزية التي أنشئت في ذلك الوقت .

٢ - بعد هذه الخطوة الأولى في مجال التنمية - وقد كانت في مجال رد الفعل أكثر منها في مجال الفعل - بدأ عبد الناصر يفكر في الطريقة التي يمكن بها وضع خطة كاملة للتنمية الاقتصادية في مصر .

وأقر توصية لمجلس الإنتاج في ذلك الوقت ، بأن يعهد إلى بيت خبرة أمريكي عالمي ، هو بيت « آرثر دوليتل » الشهير ، بإجراء مسح شامل لإمكانيات مصر الاقتصادية ، وكيف يمكن التخطيط لها تخطيطاً شاملأ .

وتم ذلك فعلاً ، وقامت مجموعة من خبراء « دوليتل » بمهمة استغرقت سنتين كاملتين .

٣ - في نفس الوقت ، فإن جمال عبد الناصر كان يدرك أهمية جهاز تخطيط وطني ، ومع أنه كان يعتقد أن التخطيط أرقام ، فقد كان يشعر في نفس الوقت أن التخطيط التزام أيضاً .

كان ذلك في سنوات ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ .

وجاءت حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، وكانت حرب السويس في حقيقتها حرب التنمية في مصر ، فقد كان محورها هو السد العالى ، وكان تأميم قناة السويس هو ردة جمال عبد الناصر على سحب المساهمة الأمريكية البريطانية في السد العالى ، وعلى إحجام البنك الدولى اثر ذلك عن أن يقوم بتمويل المشروع .

وكان السد العالى هو التجسيد العملى لأمال عبد الناصر الطموحة في التنمية ، وكان بين حجج جون فوستر دالاس ، وزير الخارجية الأمريكية ، وهو يسحب المساهمة الأمريكية في تمويل السد ، هو أن مصر وشعبها وميزانيتها لا تستطيع تحمل أعباء مثل هذا الحلم العملاق ! وأثناء حرب السويس ، وبعدها ، أضاف جمال عبد الناصر إلى إمكانيات ووسائل التنمية عنصرين جديدين :

- ١ - قناة السويس وقيمتها الاقتصادية ودخلها .
- ٢ - مجموعة البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية ، التي كانت مملوكة للإنجليز والفرنسيين والسويسريين والبلجيكي ، وقد وضعت هذه المصالح تحت الحراسة في ظروف الحرب أولاً ، ثم صدر قرار بتمصيرها ثانياً ، ثم تغير التمصير إلى التأميم ثالثاً ، وكانت تلك أول نواة لقطاع عام يقوم بدور طليعي في عملية التنمية .

□ □ □

ومع بداية سنة ١٩٥٧ ، كانت الفرصة قد أصبحت متاحة للتخطيط المدروس والمتكامل ، وبدأ العمل ، واستمر حتى سنة ١٩٦٧ ... عشر سنوات كاملة بغير انقطاع .

عشر سنوات تحملت فيها مصر ضغوطاً اقتصادية ونفسية بغير حدود .

وتحملت فيها مصر مسؤوليات عربية استوجبها دورها القومى .

ومع ذلك فإن هذا كلّه لم يوقف اندفاعها نحو التنمية ، ولم يؤثر في النتائج الباهرة التي حققتها . طوال هذه السنوات العشر كانت نسبة النمو الاقتصادي في مصر تسير بمعدل ٦,٢ % سنوياً بالأسعار الثابتة الحقيقة .

بل إن هذه النسبة ارتفعت في وسط الفترة ، أي من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٥ ، إلى معدل ٦,٦ % .

ومصدر هذا الرقم تقرير البنك الدولى رقم ٨٧٠ . أ عن مصر ، الصادر في واشنطن بتاريخ ٥ يناير ١٩٧٦ (أي مطلع هذه السنة التي نحن فيها الآن) .

هل يحتمل هذا المصدر أي شك ؟

هل أصبح البنك الدولى متواطناً مع عبد الناصر ؟

وما الذي يعنيه هذا الرقم ؟

يعنى أن مصر استطاعت في عشر سنوات من عصر عبد الناصر أن تقوم بتنمية ثماثل أربعة أضعاف ما استطاعت تحقيقه في الأربعين سنة السابقة على عصر عبد الناصر .
كانت تلك نتيجة لا مثيل لها في العالم النامي كله ، حيث لم يزد معدل التنمية السنوي في أكثر بلدانه المستقلة خلال تلك الفترة عن الثنين ونصف في المائة .
بل إن هذه النسبة كان يعز مثيلها في العالم المتقدم ، باستثناء اليابان وألمانيا الغربية ومجموعة الدول الشيوعية .

□ □ □

وجاءت سنة ١٩٦٧ . وكانت الصدمة الكبرى ، ولكن تجربة التنمية المصرية كانت قادرة على تحمل أعباء الصمود .

ولكي يكون الكلام محددا ، فإن الاقتصاد المصري تحمل بعد سنة ١٩٦٧ المهام الأربع التالية :
١. تحمل هذا الاقتصاد عبء إعادة بناء القوات المسلحة (ولا أخوض في تكاليف هذا العباء حتى لا أقع في محظوظ السرية الواجبة) .
٢. تحمل هذا الاقتصاد بإعتماد بناء السد العالي ، ولم يكتمل هذا السد ، كما نتنكر ، (إلا سنة ١٩٧٠ ، حين وقف جمال عبد الناصر في آخر احتفال حضره نعيم الثورة في ٢٣ يوليو من تلك السنة يستهل خطابه التقليدي للأمة برسالة جاءته من وزير السد العالي يعلمه بأن بناء السد قد تم ، ويأن بناء السد على استعداد لتحمل مسؤوليات أية مشروعات كبيرة غيره يكلفون بها .

(من المحزن أن صور جمال عبد الناصر تُزع معظمها أخيراً من منشآت السد العالي في أسوان ، وقيل في تبرير ذلك أن شاه إيران كان يريد زيارة السد ، وأن العلاقات بينه وبين جمال عبد الناصر لم تكن على ما يرام ، فقد رُكِي رفع معظم الصور حتى لا تؤذى عينيه إذا وفينا عليها . واعتقادي أن ذلك خطأ حتى في تقدير مزاج الشاه ، وأظنه لو عرف بما حدث لأبدى اعتراضه عليه ، فإن الشاه رغم خلافه مع جمال عبد الناصر ، يعترف له بدوره التاريخي الكبير) .

٣. تحمل هذا الاقتصاد أعباء مشروعات جديدة ضخمة ، أبرزها مشروع مجمع الحديد والصلب ، وقد وصفه الرئيس السادات بأنه مشروع « لا يقل ضخامة عن مشروع السد العالي » ، ثم إنه من القواعد الأساسية لصرح الصناعات الثقيلة في مصر .
٤ - تحمل هذا الاقتصاد ، فوق ذلك كلّه ، عباء تثبيت أسعار السلع الإستهلاكية ، فبقيت الحياة محتملة للسود الأعظم من الجماهير .

كانت تلك شبه معجزة حملها الاقتصاد المصري ، ولم تكن المعجزة من صنع المصادرات أو عماريات الجن ، وإنما كانت من صنع طاقة انتاجية متماسكة قادرة على تحمل صدمة فاجأتها على غير انتظار .

وتبدو قيمة هذه المعجزة في الصمود إذا تذكرنا أن مصر في ذلك الوقت لم تكن تحصل من الدعم العربي إلا ما نصت عليه اتفاقية الخرطوم سنة ١٩٦٧ ، وكان في حدود مائة مليون جنيه كل سنة ، تقاد توازى تماماً ما فقدته مصر بإغلاق قناة السويس وضياع دخلها .

وأسأل بإنصاف :

ـ هل هذه صورة اقتصاد تركه جمال عبد الناصر خراباً تلعق فيه البوم والغربيان ، أم أنه على العكس من ذلك ، اقتصاد استطاع الاستجابة للتحديات ؟

□ □ □

ولربما رد البعض ، وردهم متوقع :

ـ والديون .. نسبت الديون ؟!

ليكن ، .. ولنتوقف لحظة أمام حديث الديون .

تقول الأرقام :

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) كان مجموع الديون التي تحملها مصر هو أربعة آلاف مليون دولار ، هي مجموع الدين المدني والعسكري ، وكان معظمها للاتحاد السوفييتي ، على أقساط ممتدة ، وبسعر فائدة قدره ٢,٥ بالمائة .

وكان الدين المرهق هو الدين القصير الأجل ، وهو قروض بتسهيلات مصرية ولموردين في حدود مائة وثمانين يوماً وفواتنده عليها عالية ، ما بين ١٠ إلى ١٤ في المائة .

كان حجم هذا الدين هو ١٠٤ مليون جنيه .

هذه هي صورة الديون ، لكن كيف يمكن أن نضعها في إطارها الحقيقي .

الدين الخارجي الرئيسي ، وهو أربعة آلاف مليون دولار مثلاً ، يوازي ربع نظيره الإسرائيلي مثلاً ، مع التباين الهائل في عدد السكان (٣٦ مليوناً في مصر وثلاثة ملايين في إسرائيل) وفي قياس آخر فهو يمثل نصف الدين التركي !

وإذا ما تذكروا أن معظم الديون كانت في الحقيقة لتمويل مشروعات إنتاج لوجدنا أن الصورة ليست مخيفة .

ولكن أكثر ما كان يزعج جمال عبد الناصر هو الدين القصير الأجل ، معظمه استهلاكي ، واستحقاقاته قريبة ، وفواتنه عالية .

كان حجم هذا الدين ، كما قلنا ، ١٠٤ مليون جنيه سنة ١٩٧٠ .
وكيف يمكن أن نضع هذا الدين في إطاره الحقيقي ، عن طريق المقارنة والقياس .
ماذا لو أجرينا المقارنة والقياس على حجم هذا النوع من الدين سنة ١٩٧٥
تقول الأرقام أن هذا النوع من الديون القصيرة الأجل على مصر وصل في شهر يناير
سنة ١٩٧٥ إلى ١٠٠٤ مليون جنيه .

أى أنه من سنة ١٩٧٠ إلى سنة ١٩٧٥ زاد عشر مرات .
يبقى أن أقول أن مصدر هذه الأرقام تقرير رسمي للبنك المركزي المصري قدمه إلى البنك
الدولي ، وورد في تقرير البنك الدولي رقم ٨٧٠ - أ عن مصر ، الصادر في ٥ يناير ١٩٧٦
(بداية هذه السنة !) .

□ □ □

وأسأل :

هل أنا في حاجة إلى أرقام أخرى لكي أقول . وبمنتهاء الهدوء . إن عبد الناصر لم
يترك حين رحيله خرابة تتعقد اليوم والغريان على أطلاله ؟
ومع ذلك ، أسوق هذه الأرقام المقارنة في عدد من المجالات الهامة .

● في مجال الإدخار الوطني والتنمية :

سنة ١٩٧٠ (منة رحيل عبد الناصر) كان الاستهلاك العام والخاص في مصر بنسبة ٩٠
بالمائة . وكانت المدخرات الوطنية المتاحة من الدخل للتنمية بنسبة ١٠ بالمائة من الدخل القومي .
سنة ١٩٧٥ وصل الاستهلاك العام والخاص إلى نسبة ١٠١,٥ بالمائة أى أن الاستهلاك زاد
عن الدخل القومي كله بواحد ونصف في المائة . أى أن مصر أصبحت تأكل من رأسمالها .

● في مجال التضخم :

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) كانت نسبة التضخم السنوي في مصر في حدود ٥
بالمائة سنوياً .

سنة ١٩٧٥ ، كانت نسبة التضخم السنوي في مصر ما بين ٢٠ إلى ٢٥ في المائة .

● في مجال الدعم العربي لمصر :

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) لم يكن هناك غير اتفاقية الخرطوم .
سنة ١٩٧٥ ، قدمت الدول العربية ، علاوة على اتفاقية الخرطوم ، وزيادة عليها ،
ما يكاد يصل إلى ألفى مليون دولار .

* من سنة ١٩٧٥ حين استشهدت بهذه الأرقام إلى مت سنوات بعدها أى سنة ١٩٨١ وصل مجموع الديون
الخارجية على مصر إلى أكثر من ثلاثة ألف مليون جنيه .

وإذا أردت أن تكون منصفاً لكل الأطراف ، فإني أقول :

- إن عبد الناصر لم يترك خرابةً تتعقد البوم والغريان على أطلاله ، وإنما ترك اقتصاداً قادرًا على الاستجابة . وبالتأكيد فقد كانت لهذا الاقتصاد مشاكله ، ولكن معظمها كان مشاكل نمو ، إلى جانب مشاكل خلط في الأولويات ، وقصور إدارة .

ولتكن الصورة العامة لم يكن فيها ما يدعو إلى التشاوُم ، وإنما كان فيها ما يستدعي التطوير والتحديث ، خصوصاً في الإدارة .

والصورة التي نراها الآن . بأرقام سنة ١٩٧٥ . تبدو مزعجة ، ولكن الأعذار يمكن أن تساق لها من عوامل كثيرة ، بعضها خارج عن الإرادة مثل ارتفاع أسعار المواد الغذائية الذي جعل الدعم الحكومي لهذه السلع يرتفع من ٨٠ مليون جنيه سنة ١٩٧٠ ، إلى ٦٥٠ مليون جنيه سنة ١٩٧٥ ، ثم إلى زيادة نسبة التضخم العالمي ، ثم إلى القفزة الهائلة في أسعار الوقود .

نستطيع هنا - ١٩٧٥ - أن نجد مبررات وأعذاراً .

ولكننا لا نستطيع - بالإنصاف - أن نقول إنه من هناك . سنة ١٩٧٠ . بدأت المثلثة حين ورثنا خرابةً ينبعق البوم والغريان على أطلاله !
ليس ذلك صحيحاً .

ثم إنه ليس أميناً !

ويقال إن الحل هو « الإنفتاح » وتشجيع رأس المال الخاص على استثمار أمواله ، والتوكيل إلى رأس المال الأجنبي أن يطلق علينا بنظره عطف ورضا .

وهل لي أن أذكر ما تقوله الأرقام ؟

● تقول الأرقام إن القطاع العام يسيطر على ٣٠ بالمائة من وسائل الإنتاج ، وإن القطاع الخاص يسيطر على ٧٠ بالمائة (بما في ذلك الزراعة ، مع ملاحظة أن النسبة في الصناعة وحدها هي ٧٥ بالمائة للقطاع العام ، و ٢٥ بالمائة للقطاع الخاص) .

ومع ذلك ، فإن القطاع العام أسهم مباشرة في ميزانية الدولة سنة ١٩٧٥ بما قيمته ٨٠٠ مليون جنيه ، على شكل أرباح وضرائب ورسوم مباشرة .

وفي نفس الوقت ، فإن إسهام القطاع الخاص في هذه المجالات في ميزانية الدولة سنة ١٩٧٥ لا يزيد على ثلاثة ملايين جنيه !!

ولست أريد أن أقل من أهمية نشاط القطاع الخاص ، ولكن قوة التقدم الكبرى تبقى هي القطاع العام .

● رأس المال الأجنبي ؟

سوف أعطى نمونجاً واحداً ، وأقل فمى بعده وأسكت :

في الستين الأخيرتين ، وبرغم اصبعها العشرة التي أوقتناها شموعاً لرأس المال الأجنبي ، كان مجموع استثماراته في مصر حتى شهر يونيو ١٩٧٥ . من أولها إلى آخرها - ثلاثة ملايين جنيه استرليني بال تمام والكمال ، جاءت مساهمة في مشروعات مشتركة أبرزها مشروع « ويمبى » لبيع اللحم المشوى ، ثم مشروع دجاج « كنتكى » لبيع الدجاج المقلى ، وقد دخلت في الإستثمارات تحت بند مشروعات سياحية .

وبقية أساطير الانفتاح ما زالت هناك مع السحاب .

ثم مرة أخرى : ماذَا أقول !؟

الحدث
الثاون

عبد الناصر
والحركة العربية العامة

ويقولون - ضمن ما يقولون - عن جمال عبد الناصر :

ـ لقد أنقضَ على الأرض العربية كأنه الإعصار ... زرع الشوك وحصد المر ، وأشاع الفتنة ، وحبس الود بين أبناء الأمة الواحدة !!

فهل هذا صحيح ؟

لكى نستطيع اختبار صحة هذا القول - ومثله - فربما كان مفيداً أن نعود بنظرية على الأرض العربية قبل جمال عبد الناصر :

١ - كان الإستعمار البريطاني ما زال يقاوم شبه الجزيرة العربية ، وفي مصر ، والسودان ولبيبا ، لكى يحتفظ بمواقعه المسيطرة القديمة ، وكذلك كان يفعل الإستعمار الفرنسي فى شمال أفريقيا .

وكان الشعوب العربية تقاوم السيطرة ، ولكن ردها كان أضعف من التحدى ، خصوصاً بعد أن حقق الإستعمار نجاحه الكبير بإنشاء إسرائيل قاعدة له فى قلب الأمة العربية ، تقطع امتداد أرضها ، وتعوق وحدتها وتمتص جهودها أولاً بأول .

وكان قوى السيطرة الأمريكية واقفة على الباب تنتظر نتيجة المعركة الدائرة بين الإستعمار التقليدى وبين الوطنية العربية ، وكانت خطتها أن تنتقم لتمسك بزمام الأمور إذا تحول اتجاه المعركة - ضد الإستعمار التقليدى - أو إذا عجز هذا الإستعمار التقليدى عن مواصلة دوره ، بسبب الاستنزاف الذى تعرض له فى الحرب العالمية الثانية ، ومثل هذا حدث فى تركيا واليونان ، اللذين كان لبريطانيا فيها دور خاص اضطرت للتخلى عنه للولايات المتحدة التى أعلنت « مبدأ ترومان » وهو رعناد إلى التواجد العسكرى والسياسى فى تركيا واليونان سنة ١٩٥٠ .

ويلفت النظر أن هذه هي السنة نفسها التي تبلور فيها مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط «ميدو» ، كما أطلق عليها وقتها ، ليكون حلقة في سلسلة أحلاف الغرب المعادية للإتحاد السوفييتي - يملأ الفجوة المفتوحة بين حلف الأطلسي «ناتو» ، وحلف جنوب شرق آسيا «سيانو» - وكانت هذه الأحلاف كلها تحت القيادة الأمريكية .

٢ - في نفس الوقت كانت دلائل الصراع الاجتماعي - الصراع الطبقي - موجودة في المنطقة ، تعكس نفسها داخل كل بلد عربي ، كما تعكس نفسها عبر كل الحدود العربية .

إن تعبير «الصراع الطبقي» ما زال يخيفنا ، وما زلنا نتصوره شحنات من الكراهية ، وذلك لا مبرر له . وإذا نظرنا إلى تاريخنا الاجتماعي - نظرة صدق موضوعى - لوجدنا على سبيل المثال : أن الثورة التي قادها الملك عبد العزيز آل سعود كانت في حقيقتها تعبيراً عن صراع طبقي دار في إطار قبلي ، وهو يصلح لأن يكون نموذجاً تقليدياً للنظرية ابن خلدون الشهيرة عن دورة الصراع بين البدو والحضر ، وبين القبائل والمدن .

بل إن الخلافات الشهيرة في ذلك الوقت بين الأسر الحاكمة في المنطقة العربية كانت بشكل ما تعبّر عن صراع طبقي بين حكام مجتمعات القبائل وحكام مجتمعات التجار .

أعود إلى ما كنت أقوله :

كانت بوادر الصراع الطبقي موجودة في كل بلد عربي . وفي مصر مثلاً كان هذا الصراع بعد ٢٦ يناير ١٩٥٢ مشتعلًا بحريق القاهرة ، ملطفاً بالدم الذي أساله العنف في سنوات القلق التي عانتها مصر قبل الثورة .

ثم كانت بوادر الصراع الطبقي موجودة عبر الحدود العربية ، متمثلة في خلافات الأسر الحاكمة ، والحروب الصغيرة ، وغارات الحدود ، إلى آخره .
وكان ذلك شيئاً طبيعياً ، من طبائع الحركة التاريخية ذاتها .

بل إننا نرى الآن أمام عيوننا صراعاً طبيعياً يجري على مستوى العالم كله ، وليس على مستوى منطقة محددة ومحدودة فيه .

أليس هناك الآن نوع من الصراع الطبقي بين الدول المتقدمة والدول المختلفة ، يطلقون عليه - مجازاً - تعبير الصراع بين الشمال والجنوب ؟

أليس حقيقة أن جزءاً كبيراً من التأييد الضخم الذي تلقاه الثورة الفلسطينية في المجتمع الدولي ، وفي الأمم المتحدة بالذات ، يرجع إلى تعاطف كل المحرورين في العالم النامي مع ثورة المحرورين من كل حق في فلسطين ؟

أليس حقيقة أن الصراع الطبقي على المستوى العالمي هو من أكبر الأسباب التي دعت كوبا إلى الوقوف جنباً إلى جنب مع جنود الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ؟
إن كوبا - جغرافياً - لم تكن في القارة ، وإنما - اجتماعياً - وقفت مع ثوارها .

وجنوب أفريقيا - جغرافيا - جزء من القارة ، ولكنها - بانتمائهما الإجتماعي - وقت ضد ثوارها .

٣ - كانت المنطقة كلها ، رغم موقعها الاستراتيجي - وهو حقيقة اكتشفت من قديم الزمان - ورغم ثروتها المحتملة . وهي حقيقة اكتشفت على الأقل منذ بداية القرن . لا تمثل بذاتها أي قيمة ، في موازين القوى العالمية ، فقد كان ثقلها كله يعود إلى من يسيطر عليها ويمسك بمقاديرها من بين القوى الكبرى الغالبة .

ولم يكن الاستعمار يحكم بنفسه ، وإنما كان يستخدم عناصر ارتبطت مصالحها بمصالحه ، وتناقضت وبالتالي مصالحها مع مصالح الجماهير التي تسلطت عليها .

وبالتالي ، فقد كان كفاح شعوب المنطقة لتحقيق ذاتها وتأكيد تأثيرها على موازين القوى عن طريق التخلص من السيطرة السياسية . هو في نفس الوقت صراع اجتماعي ضد الاستغلال المحلي بأشكاله المختلفة .

ومن هذه الحقيقة الرئيسية ، فلقد تدعت حقائق أخرى ، أبرزها أن الحكم على أصلية أي حركة وطنية سياسية أصبح مرهوناً برؤيتها الإجتماعية .

□ □ □

كانت الصراعات إذن قبل جمال عبد الناصر موجودة بالطول وبالعرض على الأرض العربية ، ولم يأت بها جمال عبد الناصر من عنده ، ولا التقطها من الفراغ التقاطاً لكنى يفرضها على الأمة وشعوبها .

ومع ذلك فلنأخذ مثلاً نطبق عليه ، ولنأخذ المثال من أول خلاف عربي قاده جمال عبد الناصر ، وهو خلاف اختفى الآن جميع أبطاله ، وهذا مناسب لأنه يطرح كل الحسابيات جانبأ .
لتأخذ خلافه مع نوري السعيد ما بين سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٥٨ . ففي تلك السنوات الخمس انقسم العالم العربي على نفسه كما لم ينقسم من قبل ولا من بعد .

كان موضوع الخلاف هو حلف بغداد . الذي قام تطويراً لفكرة منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط « ميدو » . وهل ينضم إليه العرب بحثاً عن مستقبلهم ، أو لا ينضمون إليه حرضاً على مستقبلهم ؟

نأخذ هذا الخلاف ، وحجج الطرفين فيه ، ونقارن :

□ كانت مصر ، ومن قبل الثورة . وتبعتها في ذلك دول عربية أخرى . قد رفضت فكرة منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط ، فقد وجدتها صيغة جديدة من صيغ السيطرة الاستعمارية .
ثم عرض هذا المشروع على جمال عبد الناصر بعد الثورة ، فكرر رفضه أيضاً .

وكان جمال عبد الناصر أكثر وضوحاً في رفضه ، فقد كان يريد للعرب أن يقيموا ، نظاماً عربياً ، شاملأ لهم على أساس وحدة الأمة مصلحة وأمناً . ولا يريد نظام ، شرق أو سط ، يقوم على تعبير جغرافي اختزنته أثناء الحرب العالمية مطالب هذه الحرب واستراتيجياتها .

وكان جمال عبد الناصر يرى أن ، نظام الشرق الأوسط ، سوف يشمل تركيا وإيران وباكستان ، وربما إسرائيل أيضاً ولو حتى بطريق غير مباشر .

ولم يكن يرى وحدة مصلحة أو أمن بين العرب وبين هذه الدول .

وربما كان يرى معها - باستثناء إسرائيل - فرصة للتعاون والتنسيق ، ولكن النظام يجب أن يكون غير النظام .

ولم يكن عنده مانع أن تنضم تركيا وإيران وباكستان إلى حلف لنطاق الشمالي من الشرق الأوسط ، لكنه بالنسبة للعرب كان يتصور شيئاً آخر : نظاماً عربياً . كما قلت . يستند على :

- جامعة الدول العربية - إطار سياسي .
- ميثاق الدفاع العربي المشترك - عمل عسكري موحد .
- سوق عربية مشتركة - اقتصاد يتكامل باستمرار .

□ في مقابل ذلك ، خرج نوري السعيد برأي آخر يؤيد حلفاً مع الغرب ، وكان رأيه أن بريطانيا لن تخرج من مصر والعراق إلا إذا اطمأنـت إلى أنه ليس هناك فراغ دفاعـي ينشأ في المنطقة بعد خروجـها ، وبالتالي فالارتباط بالأحـالـف هو الوسيلة للخلاص من الإحتـلال .

وكان نوري السعيد يرى أيضاً أن عهد الاستقلال التقليدي قد انتهى ، وأن العالم الآن في مرحلة ، الاعتماد المتـبـاـدـلـ ، بين عـدـيدـ من الأـطـرـافـ الـتـىـ تـنـفـقـ مـصـالـحـهـ ، خـصـوصـاـ أـمـامـ خـطـرـ واحدـ يـتـهـدـهـ ، وإنـ الخـطـرـ الـذـىـ يـتـهـدـهـ العـربـ الـآنـ هوـ الخـطـرـ الشـيـوعـيـ القـادـمـ منـ الـإـتـحـادـ السـوـفـيـيـ ، وـالـعـربـ فـيـ هـذـاـ يـلـتـقـونـ مـيـاـشـرـةـ مـعـ الـغـربـ الـذـىـ يـقـفـ لـلـإـتـحـادـ السـوـفـيـيـ بالـمـرـصـادـ ، وـيـعـوـقـ تـقـدـمـهـ . وـكـانـ نـوـرـيـ السـعـيـدـ يـؤـكـدـ ذـلـكـ بـأـنـ يـشـيرـ إـلـىـ خـرـيـطةـ ، وـيـقـولـ نـمـنـ يـنـاقـشـهـ باـسـتـمـارـ :

- إنـ بـيـنـ حـدـوـدـ العـرـاقـ الشـمـالـيـ وـحـدـوـدـ الـإـتـحـادـ السـوـفـيـيـ مـسـافـةـ عـشـرـاتـ الـأـمـيـالـ ، وـإـذـاـ لمـ يـكـنـ هـذـاـ رـادـعـ فـلـاـ جـاهـلـ جـيشـ الـأـحـمـرـ قـدـ تـجـازـ الـجـبـالـ فـيـ أـيـ وـقـتـ ، وـتـجـاجـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ كـلـهـ . . .

□ كان عبد الناصر يرد على ذلك بتنفيذ حجـجـ نـوـرـيـ السـعـيـدـ : « ... نـحنـ قـادـرـونـ عـلـىـ اـرـغـامـ الـإـحـتـلـالـ الـأـجـنـبـيـ فـيـ أـرـضـنـاـ عـلـىـ أـنـ يـحـمـلـ عـصـاهـ وـيـرـحلـ » .
« ... وـلـنـ يـكـنـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ فـرـاغـ بـعـدـ رـحـيـلـهـ ، لـأـنـ الـمـنـطـقـةـ لـيـسـ فـضـاءـ عـارـيـاـ ، وـإـنـمـاـ الـمـنـطـقـةـ تـسـكـنـهـ أـمـةـ عـرـبـيـةـ قـادـرـةـ عـلـىـ الـأـخـذـ بـأـسـبـابـ الـقـوـةـ » .

، ... و ، الاعتماد المتبادل ، مرغوب فيه ، ولكن على أساس وحدة المصلحة والأمن ، وبالتالي قاطرة المعنون الوحيد هو الإطار العربي ، .

، ... والخطر لن يجيئنا من الشيوعية ولا من الاتحاد السوفييتي ، وإنما الخطر الأكبر علينا . وتحديد العدو أول خطوة في رسم أية استراتيجية . هو من إسرائيل ، .

، ... وعلى فرض أن الخطر من الشيوعية ، فإن الوطنية هي درع المقاومة الحقيقة ، .

، ... ثم إن الخطر السوفييتي لن يجيء بالجيش الأحمر زاحفاً عبر الجبال الشمالية ، لأن ذلك لو حدث . سوف يحرك موازين دولية كبرى ، .

، ... ومع ذلك فلننشر نظارتنا العربية المستقل .

ولتكن هذا النظام موجهاً بالدرجة الأولى ضد إسرائيل ، ثم ليكن بعد ذلك موجهاً إلى أي خطر يجيئنا من أية ناحية ، لصده بكل قوانا ، وليس هناك بأس في هذه الحالة من أن نطلب نجدة القادرين على لجنتنا ضده ، .

□ وكان نوري المعيدي يسوق حججاً لتدعم وجهة نظره :

● ، كيف نسلح جيوشنا إذا لم نتعامل مع الغرب ، ومن أين نجئ بالسلاح الذي نواجه به إسرائيل ؟ ، .

● ، إن تركيا وإيران وباكستان معنا في حلف ، وسوف يحاربون في صفوفنا ضد إسرائيل ؟ ، .

● ، إن هناك رباطاً يشدنا إلى هؤلاء الثلاثة ، وهو رباط الإسلام ، .

□ وكان جمال عبد الناصر يرد :

● ● ، إن الغرب . الولايات المتحدة بالذات . لن تسلحنا لحرب نخوضها ضد إسرائيل ، .

(وقد أكدت التطورات صحة رأي جمال عبد الناصر ، فبعد انهيار حلف بغداد ثبت أن كل ما حصلت عليه العراق من المساعدات العسكرية الأمريكية كان ثالث طائرات !) .

● ● ، إن تركيا وإيران وباكستان لن تحارب معنا ضد إسرائيل ، لأنها لا تشعر بخطرها وهي عنده بعيدة ، .

● ● ، إن رباط الإسلام مقدس ، وهو لا يشدنا إلى هذه الدول الثلاث وحدها ، ولكنه يشدنا إلى شعوب وأمم مسلمة في آفاص آسيا وأعماق أفريقيا (أندونيسيا ، الملابي في آسيا مثلاً . والسنغال وغينيا في أفريقيا مثلاً) ، لكن رباط الإسلام المقدس شيء ، ووحدة المصلحة والأمن شيء آخر ،خصوصاً إذا ارتكزت إلى جانب

الذين على وحدة التاريخ ووحدة الثقافة ووحدة اللغة ووحدة الامتداد الجغرافي المتصل .

وانفرد نوري السعيد بموقف وحده ، فوقع بغير اخطار ولا سابق إنذار حلف بغداد مع تركيا ... ولم يقف عند هذا الحد .

ولأنما وجّه الدعوة مفتوحة إلى بقية الدول العربية ، خصوصاً في المشرق ، لكي تنضم إلى الحلف الجديد ، وكان الضغط الغربي على أشدّه في عواصم تلك الدول ، يحاول أن يجرّها جرأة إلى حلف بغداد .

في هذه اللحظة فقط تحرك جمال عبد الناصر إلى تصعيده خلافه مع نوري السعيد وكانت وجهة نظره :

ـ لو اقتصر الأمر على العراق لقلنا دولة تعارض حقوق سيادتها المشروعة ، والحكم على سياساتها يعود لشعبها أولاً وأخيراً .

ولكن توجيه الدعوة إلى بقية الدول العربية والضغط عليها حتى تنضم إلى حلف بغداد ، هدم لكل أمل في إقامة « نظام عربي » مستقل ، واحتدمت المعركة .

ووقفت السعودية وسوريا مع مصر .

وانتهت المعركة بسقوط حلف بغداد في بغداد ، وبواسطة الشعب العراقي وجيشه .
نلاحظ هنا عدة أشياء :

- ١ - ان جمال عبد الناصر لم يفلت من الخلاف .
- ٢ - ان جمال عبد الناصر كان في موقف الدفاع ، ولم يكن في موقف الهجوم .
- ٣ - ان جمال عبد الناصر كان على حق ، بنتيجة التجربة التاريخية .
- ٤ - ان جمال عبد الناصر لم يعتمد على شيء ، إلا على جماهير الأمة العربية وعلى وعيها .

وربما أضفت هنا ملاحظة سريعة في الرد على هؤلاء الذين يقولون إن جمال عبد الناصر أضاع ثروة مصر في « مغامرات » خارجية ، وهم بالطبع يقصدون حركته العامة داخل العالم العربي ومن حوله ، هذه الملاحظة هي أن « المغامرات » ، كما يسمونها ، هي في حقيقة أمرها التزام قومي ، فإذا طرحنا موضوع الإلتزام القومي جانباً ونظرنا إلى هذه المغامرات نظرة ضيقية وإقليمية ، وحتى حسابية ، لقلنا إن هذه « المغامرات » لم تكون خسارة لمصر ، وإنما كانت كسباً لها ، ذلك أن قيمة أي دولة في العالم - خصوصاً في عصر الحرب الباردة - أصبحت ترتبط بمقدار تأثيرها خارج حدودها الضيقية ، وقد حصل جمال عبد الناصر من العالم الخارجي ، بـ« مغامرات » ، ما يتعدي قيمة مصر داخل حدودها ، لكي يوازي تأثير مصر خارج هذه الحدود .

والبرهان العملي على ذلك هو الأرقام ، فمصر ، المغامرة ، استطاعت أن تنمو معدل زيادة قدرها ٦,٧ بالمائة سنوياً في الفترة ما بين ١٩٥٥ إلى ١٩٦٥ ، طبقاً لوثائق البنك الدولي ، وأما مصر ، غير المغامرة ، الطبيعة المؤدية المخطية ، فإن الإنثار القومي - أساس التنمية فيها سنة ١٩٧٥ كان ١,٢ بالمائة بالناقص ، طبقاً لأرقام التخطيط المصري ١

وكانت معركة حلف بغداد نموذجاً لمعارك أخرى خاضها جمال عبد الناصر تحت شعارات عدم الإنحياز ، وكان كثيرون لا يؤمنون به في العالم العربي ، وتحت شعارات التنمية ، وكانت مفهوماً وافداً على العالم العربي ، وتحت شعار «الاشتراكية» ، وكانت شيئاً شبه مكروراً في العالم العربي .

ولذا الفتنا حولنا الآن ، فماذا نجد ؟

ما كان ينادي به جمال عبد الناصر بالأمس ويحارب بسببه ، هو الآن عقائد أساسية في العالم العربي .

العالم العربي كله ينادي بالموقف المستقل .

والعالم العربي كله يتبنى سياسة عدم الإنحياز .

والعالم العربي كله يتجه نحو «الاشتراكية» ، وإن اختار لها البعض مسميات أقل علناً وأكثر رقة مثل «العدالة الاجتماعية» .

□ □ □

ويقال :

.. لم يكن هناك بأس فيما دعا إليه ودافع عنه ... ولكن المشكلة كانت مشكلة الأسلوب ... أسلوب التحرير والتارة ... إدارة السياسة من الشرفات وأمام الميكروفونات ... هذه هي القضية ..

والرد على هذه النقطة كما يلى :

١ - أليس كل دعوة جديدة تقابل بالصد، مما يجعلها أمام ضرورة الإلحاد بكل الوسائل ؟ .. لنقرأ التاريخ ، ولا أحتاج هنا لضرب الأمثلة من حياة رواد التغيير أو حتى الإصلاح ، ومن حياة رواد الفكر أو حتى رواد العلم .

٢ - لقد كان العصر عصر الحرب الباردة ... كانت حرباً سلاحها التأثير بواسطة الكلمة والصوت ، بدلاً من القنبلة والطائرة .

٣ - لقد كان على جمال عبد الناصر أن يخاطب جماهير تقع تحت السلطة الرسمية لهؤلاء الذين يقاومون دعوته .

٤ - لقد كان جمال عبد الناصر الصوت الوحيد المعسوم في كل المنطقة من

الخليج إلى المحيط ، وكانت كل القوى تنتظر كلمته ، وكان ضروريًا أن يتكلم .
وربما تذكّرنا أن جمال عبد الناصر خاض معركة الأحلاف ، وانتصر فيها بغير رصاصة واحدة ، وبغير نقطة دم واحدة .
ومع ذلك ، فلنكن منصفين ، ونسأل :
ـ لقد رحل جمال عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، فهل مكنت الأعاصير بعده على الأرض العربية .. وهل عاد الورد وزال الشوك ، وأقبل اللوز وأدبرت الفتنة في العلاقات ما بين العرب ؟

إن كان هو الذي يثير ثائرة الكل على الكل ، فما بالهم لم يخلوا إلى الهدوء والصفاء بعد رحيله ؟

• • • والعلاقات بين مصر وسوريا ليست هدوءاً وصفاء .
والعلاقات بين مصر والثورة الفلسطينية ليست هدوءاً وصفاء .
والعلاقات بين مصر ولبيبا ليست هدوءاً وصفاء .
والعلاقات بين مصر والأردن ليست هدوءاً وصفاء .
وهذه كلها خطوط المواجهة مع العدو الواحد ، أو هي عمق جبهة المواجهة !

• وبعد ذلك :

العلاقات بين سوريا والعراق ليست هدوءاً وصفاء .
العلاقات بين ليبية والمغرب ليست هدوءاً وصفاء .
• وهناك ثلاثة حروب محتملة أو قائمة فعلًا على الساحة العربية :
حرب بين الجزائر والمغرب .
معارك على الحدود بين اليمن الجنوبي وسلطنة عمان .
توتر شديد بين العراق وسوريا .

• وأسوأ من ذلك كله ، حرب أهلية عربية لم نفرغ بعد من تصعيد جراحها في لبنان ، وكانت خسائر الأمة في هذه الحرب الأهلية وحدها أربعة عشر ألف قتيل * ، وأكثر من خمسين ألف جريح ، وهذا كله أكبر من خسائر مصر البشرية في كل المواجهة مع إسرائيل ، من حرب فلسطين ١٩٤٨ ، إلى حرب السويس ١٩٥٦ ، إلى حرب يونيو ١٩٦٧ ، إلى حرب الإستنزاف ١٩٦٩ ، إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ !

* وصل عدد ضحايا الحرب الآن إلى أكثر من ربع مليون من البشر ما بين قتيل وجريح ، وإلى جانب ذلك غطت خريطة المنطقة بعدد من الحروب الأهلية والحروب الأقلامية وأكبرها وأخطرها الآن الحرب العراقية الإيرانية التي يزيد عدد ضحاياها اليوم عن مليون من البشر .

كل هذا وجمال عبد الناصر بعيد ، لا يحرض أحداً ولا يستثير أحداً !
لعل أقول في النهاية أن دور مصر يجب أن يكون موجوداً في العالم العربي ، سواء
النهمت بالتدخل في شؤون الآخرين أو لم تتهتم .
ومع ذلك ، فلعلى أzymum أن مصر مارست ، وهي تستطيع أن تمارس ، دورها بغير تدخل
في شؤون الآخرين .

وفي كل الأحوال فإن مخاطر تدخل مصر ... أقل من مخاطر سكون مصر .
وأعترف أنني لم أكن سعيداً بدور مصر في الأزمة اللبنانية التي تحولت إلى شبه حرب
أهلية عربية .

وأعترف أيضاً أنني لم أفتتح بحجة ، عدم التدخل ، كعذر يقدم لمكوت مصر ، كما أنتي
لم أفتتح بمنطق يقول أن عوامل الجغرافيا السياسية "Geopolitics" كانت تسمح لسوريا
مثلاً ، ولا تسمح لمصر ، بدور إيجابي في حل الأزمة اللبنانية .

إن الإدعاء ، بعدم التدخل ، مردود عليه بدعوى المصير الواحد في وسط معركة
تخوضها الأمة فعلاً ، ولا تنتظر الغد لتخوضها .

ثم إن التعلل ، بالجغرافيا السياسية ، وأحكامها مردود عليه بأن القبول بمثل هذا
المنطق لا يضيع دور مصر فحسب ، وإنما يضيع مصر كلها ، من حيث أنه يعزلها
عن بقية العالم العربي عزلاً كاملاً .

إن عامل ، الجغرافيا السياسية ، يظهر في الأمة الواحدة إذا ضاع منها دور
المحرك الرئيسي ، ومصر هي المحرك الرئيسي في المنطقة .

ولكي أشرح هذه النقطة أكثر ، أقول :

إذا أخذنا بأحكام الجغرافيا السياسية ، واستبعدنا حقيقة الأمة الواحدة وللقوة الرئيسية
المحركة فيها ، فماذا نجد ؟

● نجد شبه الجزيرة العربية وحدة جغرافية سياسية ، وهي تشمل السعودية ، واليمن
الشمالي واليمن الجنوبي ، وعمان ، والإمارات العربية المتحدة ، وقطر ، والبحرين ، والكويت ..

● ونجد الهلال الخصيب وحدة جغرافية سياسية أخرى ، وهي تشمل سوريا ولبنان
والعراق والأردن وفلسطين .

● ونجد المغرب العربي وحدة جغرافية سياسية ثالثة ، وهي تشمل المغرب والجزائر
وتونس ، وربما ليبيا .

● وأخيراً نجد وحدة جغرافية سياسية رابعة هي وادي النيل .

وبهذا المنطق : أين تكون مصر ، ومن يبقى معها ؟

يبقى السودان ، وهو بحكم الجغرافيا السياسية ينجدب إلى شرق أفريقيا ، بمقدار
ما ينجدب إلى شمال وادي النيل !
ولست أعرف إذا كان ذلك ما تريده ؟

... ...
... ...

ثم أنكر بشيء :

- لقد كان بين الأسس التي تم عليها حل الأزمة اللبنانية هو العودة إلى ، اتفاقية القاهرة ،
التي نظمت علاقات المقاومة الفلسطينية مع السلطة اللبنانية .
اسمها ، اتفاقية القاهرة ، لأنها عقدت في القاهرة ، يوم كانت القاهرة : ، مغامرة ،
كانت الخلافات إذن قبله ، والخلافات مستمرة بعده .
ولربما تغيرت الخطوط ، وتبدل الصداقات والخصومات ، وخفت موازين وثقلت
موازين .
لكن الخلافات مستمرة ، والصراع دائر .

بل لعلنا ان ننسب إلى جمال عبد الناصر فضل ، تمدين ، الخلافات العربية ، فقد رفعها من
مستوى ثارات قديمة بين الملوك والقبائل والعشائر والطوائف . فجعلها حركة جماهير ، وقضايا
مستقبل ومصير : استقلال سياسي - تحرر اجتماعي - نضال وحدوي - تأثير عالمي - موارد
تعود إلى أصحابها . سيطرة الشعب على وسائل الإنتاج . تحطيم ... تأميمات ... تصنيع ...
تأميم ... زرع صحارى . بناء سدود . إلى آخره .

أى صوت كان هناك بالنداء على هذا كله أعلى من صوته ؟
وأى حركة كانت هناك نحو هذا كله أقوى من حركته ؟
من ؟ وأين ؟
قولوا لنا ! .

الحدث
الخاص

النكسة ... ١٩٦٧

ثم يصلون إلى سنة ١٩٦٧ ، وهزيمتها المؤلمة . يقولون :
ـ « والهزيمة ... مسؤوليته عن الهزيمة سنة ١٩٦٧ »
وأقول على الفور :

ـ إن جمال عبد الناصر مسؤول عما حدث سنة ١٩٦٧ ، وقد قبل هو بتحمل كل المسؤلية فيما جرى ، وصارح بذلك شعبه وأمته ، وكانت رغبتهما بعد ذلك معا هي الطلب بأن يظل في موقعه ويقود الحرب ... لقد خسرنا معركة ، ولكن الحرب مستمرة !
ولعلى أقول بعد ذلك إن مسؤولية عبد الناصر ، في الدرجة الأولى ، تتبع من سببين :

- **السبب الأول** : الخطأ في حسابات عملية إغلاق خليج العقبة .

- **السبب الثاني** : الخطأ في ترك المشير عبد الحكيم عامر يقود المعركة فعلاً ، بينما هو عملياً لا يصلح لقيادتها ، لأنه تحول في الحقيقة عند رتبة الرائد ، من ضابط إلى سياسي .
ومع ذلك ، فلكي توضع مسؤولية جمال عبد الناصر في إطارها العملي والتاريخي فإنه يت fremt علينا إلقاء نظرة واسعة على الصورة العامة للموقف السياسي والعسكري ، كما بدت أمامه وقتها .

■ ■ ■ **أولاً** : أبداً برأيته العامة لمجرى الصراع العربي - الإسرائيلي :

كان جمال عبد الناصر حريصاً كل الحرص فيما يتعلق بالصدام المسلح مع إسرائيل لعدة أسباب :

- ١ - كان يرى أن الصدام المسلح مع إسرائيل لابد فيه من حساب احتمالات التدخل الأمريكي ، وهو احتمال قائم يستهدف فرض الهزيمة على العرب إذا استطاع ، أو سلبهم ثمار النصر إذا استطاعوا . وإنن فلن نجاح الصدام المسلح في رأيه كان من هونا بظرف دولي وعربي ملائم تكون فيه القوة الأمريكية مصادمة بالفشل ، أو يمكن إصابتها به .

٢ - كان رأيه أن القوات المسلحة المصرية تحتاج على الأقل إلى خمسة عشر عاماً تستوعب فيها سلاحها الذي حصلت عليه من الاتحاد السوفييتي ولم يكن يقيس هذه المدة بتاريخ عقد أول صفقة سلاح سنة ١٩٥٩ ، وإنما كان يقيس ابتداء من سنة ١٩٥٧ . ومن هنا ، فقد كانت الفترة المحتملة للصدام المستح فـى تقديره هي الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٦٥ وسنة ١٩٧٤ .

٣ - حتى يجيء هذا الوقت وتسنح فرسته ، فقد كان جمال عبد الناصر يعتقد اعتقاداً راسخاً في سياسة يسميها هو «سياسة السنطة وشارة ذيل الحصان» ، وهي تسمية مستمدّة من حياة صعيد مصر ومارساته اليومية . وكان جمال عبد الناصر يشرح سياسته ، فيقول «إن السنطة نوع من البثور يظهر على الجسم ويتكلس ، وأهل الصعيد في مصر يعالجوه بأن يجيء الواحد منهم بشرارة من ذيل حصان ويلقها حول النمو الدخيل على جسده ، ثم يحكم شدّها بحيث يحبس مرور الدم إليها ، وتبدأ الإصابة بعد أيام تتجمد ، ثم تبدأ في الذبول ، ثم تقع من تلقاء نفسها» .

وكان رأى جمال عبد الناصر أن إسرائيل نمو دخيل في وسط الجسد العربي ، وأن مقاطعتها وإحكام الحصار من حولها وتشديد الضغط عليها كل يوم ، سوف يؤدي إلى جبن الدم عن خلاياها ، ومن ثم إلى ضعورها وسقوطها .

المهم أن نرفض التعامل معها باستمرار ، المهم أن لا يخف حصارنا عنها طول الوقت ، المهم أن نحسن بضغطنا من حولها ليل نهار .. وحتى إذا اضطررنا بعد ذلك إلى استعمال القوة المسلحة ، فإن استعمال القوة يجيء في أكثر الظروف ملائمة . وكانت له نظريته في استعمال القوة المسلحة مع إسرائيل . كان يرى أن الظروف العالمية لا تعطي العرب فرصة تحقيق نصر حاسم تهائي في معركة واحدة ، وهذا ظل يتصور سلسلة من المعارك تحقق كل منها نصراً جزئياً - عسكرياً وسياسياً - ثم يكون من أثر تراكم هذه الانتصارات كلها أن يشعر المشروع الصهيوني في فلسطين بأن لاأمل له في البقاء .

□ □ □

■ ■ ■ ثالثاً : تصوره العام لمجرى الصراع سنة ١٩٦٧ .

مع بداية سنة ١٩٦٧ ، فإن جمال عبد الناصر راح يتتابع صورة التطورات في الشرق الأوسط باهتمام مشوب بحذر شديد - لعدة أسباب :

١ - كان يشعر أن علاقاته بالولايات المتحدة الأمريكية قد وصلت إلى نقطة عنف شديد عبر عنها قرار الرئيس الأمريكي ، ليندون جونسون ، بوقف بيع القمح الأمريكي إلى مصر .

٢ - لم يكن يُستبعد ، والأمر كذلك ، أن تتجأ الولايات المتحدة إلى « الرادع الإسرائيلي » ، كما فعلت ببريطانيا وفرنسا في حرب السويس سنة ١٩٥٦ .

٣ - كان يرى أن الظروف غير ملائمة له عسكرياً بسبب وجود فرقتين من الجيش المصري في اليمن وقتها ، وكان يقدر أنه إذا أرادت إسرائيل استغلال فرصة ، فهذه هي الفرصة المتاحة لها ، وكان قد حاول من قبل أكثر من مرة أن ينهي معركة اليمن ، ولكن محاولاته جميعاً لم تصل إلى نتيجة ، وتلك قصة أخرى على أي حال !

ومن المفارقات أن ملك الأردن بعث إليه في ذلك الوقت برسالة مع الفريق عبد المنعم رياض ، يحذرها فيها من مؤامرة تستهدف جزءه إلى معركة في ظروف غير ملائمة . وكان ذلك متفقاً مع إحساسه العام .

□ □ □

■ ■ ■ ثالثاً : موقفه إزاء التهديد الموجه إلى سوريا .

وعندما بدأ ليفي أشكول - رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الوقت - وتبعه إسحاق رابين - رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي - بوجهان التهديدات الصريحة إلى سوريا ، وينحدثان علينا عن « الزحف على دمشق » ، بدأ جمال عبد الناصر يتقصى حجم الخطر الموجه إلى سوريا ، وتصادف في ذلك الوقت أن كان أنور السادات في موسكو عائداً من رحلة في « كوريا الشمالية » ، فإذا بالرئيس « نيكولاي باذجورنوي » يطلب إليه نقل رسالة إلى عبد الناصر عن الخطر الموجه إلى سوريا ، وعن استعدادات إسرائيل لتوجيه ضربة إليها .

وتوافرت معلومات عن حشد ما بين تسعة لويه إلى أحد عشر لواء أمام سوريا .

ثم تلقى جمال عبد الناصر من دمشق تقريراً بعث به السفير السوري هناك وقتها ، وهو الأستاذ صلاح الطرزى ، يقول : إن مصادر موثوق بها أكدت له أن الهجوم على سوريا قد تحدد بالفترة ما بين ١٦ و ٢٢ مايو .

وهكذا واجهته ضرورة اتخاذ قرار ، فلقد تأكدت أمامه احتمالات ضربة عسكرية موجهة إلى سوريا ، ولم يكن في مقدور مصر أن تقف مكتوفة اليدين .

(ولست أعرف ماذا كانوا يقولون عنه أو عن مصر لو أنه وقف ساكتاً ، ولم يتحرك ، يترك سوريا للغزو وحدها ١٩) .

□ □ □

■ ■ ■ رابعاً : قراره بالحركة لمساعدة سوريا وتخفيض الضغط عنها .

كان عليه أن يتحرك قبل ١٦ مايو .

وفي يوم ١٣ مايو أصدر قراراً بحشد قوات مصرية في ميناء تأهلاً واستعداداً ، ونستطيع أن نتصور اتجاهات تفكيره في تلك الفترة من خلال مقابلة بينه وبين ، الدكتور إبراهيم ماخوس ، وزير خارجية سوريا الذي طار للإجتماع به في القاهرة يوم ١٦ مايو .

وببدأ الدكتور ماخوس يروى أمامه معلومات دمشق عن الحشود الإمبراطورية ونواياها ، وعن تأكيدات السوفيت لهذه الحشود والتحذير منها . ثم قال الدكتور ماخوس ، إن السوفيت أبلغوا السفير السوري في موسكو بأنهم سوف يبذلون كل جهدهم لمساعدة سوريا في أي شيء تتعرض له ، حتى ولو اضطروا للتدخل العسكري » .

وببدأ جمال عبد الناصر بتكلم ، وكان قوله بالحرف الواحد ، نقاً عن الواقع الرسمية بذلك المقابلة :

« ليس واضحأ أمامي ما يستطيع السوفيت عمله لمساعدتكم .. تقديراتنا أنهم سوف يعطون تأييداً معنوياً ، ولكن لا أرى فرصة لتدخلهم عملياً .. سوف يساعدون في الأمم المتحدة ، وربما وجهوا إنذاراً لأمريكا وإسرائيل ، ولكن غير ذلك ، ما يستطيعون؟ .. كيف يتدخلون عملياً عبر تركيا أو إيران؟ ..» .

وامسخرد جمال عبد الناصر :

« إننا بحشد قواتنا في سيناء أردنا أن نقوم بمظاهرة كبيرة ، ولكن يكون من هذه المظاهرة رسالة لإسرائيل تعطها تفكير مرة ثانية .

ولكنني أرجوكم أنتم في سوريا أن تضبطوا أحصابكم ، ولا تدفعوا الأمور إلى نقطة الخطر .

«إنني لا أريد أن أغلق باب التراجع وراء إسرائيل . أريدهم أن يتراجعوا بهدوء ، ولا أريد أن أجعل هذه العملية صعبة عليهم ، فمن الخطر في أوقات الأزمات أن تغلق وراء عدوك باب التراجع إذا لم تكن تريد الصدام الفوري معه ..» .

وامسخرد جمال عبد الناصر :

« خططتى الآن أن أترك قوات الطوارئ في شرم الشيخ وغزة .

لقد طلبنا منهم من الخط الواقع بين طابا و رفح ، لفتح خط المواجهة أمام تدخلنا ، لو اضطررنا إلى ذلك .

لكن خروجهم من ، شرم الشيخ ، سوف يؤدي إلى تعقيدات كثيرة ، ثم إن خروجهم من قطاع غزة ليس في صالحنا ، لأننا لا نستطيع الدفاع عن القطاع في حالة نشوب عمليات . من ناحية لأنه ليس لنا فيه قوات تفيلة بحكم اتفاقيات الهدنة ، ومن ناحية أخرى لأن القطاع لا يسمح بأى مناورة في الحركة .

وأريدهم في دمشق أن تعرفوا أن الموقف دقيق ، وعليها أن تعالجه بأعصاب باردة ، وأنا أطلب منكم أن تساعدوني بالإمتناع عن أي عمل استفزازي في هذه الظروف الساخنة . .

وخرج الدكتور إبراهيم مakhosn ، ويلفت النظر أن جمال عبد الناصر استدعي بعده مباشرة سفير الاتحاد السوفييتي في القاهرة ، وهو وقتها السفير « بويجدايف » ، وقال له :

- إنني أريدهم أن يعرفوا في موسكو أننا أخذنا بعض التدابير العسكرية بناء على ما أكدوه لنا من معلومات عن الحشود الإسرائيلية . إن ما قالوه لأنور السادات كان العامل الأكثـر تأكيداً لما كان لدينا من معلومات .

وبالتالي ، فربما أريدهم في هذه الفترة أن يتبعوا إلى ما يجرى في الشرق الأوسط ، خصوصاً وهم يتحملون - أبداً ، جزءاً كبيراً من مسؤولية تطورات الحوادث .

□ □ □

■ خامساً . قرار إغلاق خليج العقبة . . ■

كان الطلب المصري الأساسي هو إخلاء قوات الأمم المتحدة من خط المواجهة بين « طابا » و « رفح » ، ولكن « بونانت » السكرتير العام للأمم المتحدة ، بناء على نصيحة من مساعدته الأمريكي الدكتور « رالف باتش » ، قال إن « عمل قوات الطوارئ هو مهمة سلام لا تنجز » .

وبالتالي « فليس هناك مجال لسحب جزء من القوة وابقاء جزء منها ، لأن وجود القوة في رأيه « مهمة » تؤديها بالكامل أو تتخلى عنها بالكامل ، وإن ذُهِبَ إما أن تبقى في موقعها كما هي ، وإما أن تنسحب من جميع مواقعها ، وهذا حق مصر على أي حال بمقتضى اتفاقها مع سلفه داج همرشولد سنة ١٩٥٧ .

ولم يكن أمام جمال عبد الناصر من حل إلا أن يطلب سحب القوة من كل مواقعها ، وإلا فإن هذه القوة سوف تكون مانعاً بينه وبين أي عمل لنجدۀ سوريا .

وكان طلب خروج القوة كلها .

ووصلت وحدات الجيش المصري إلى شرم الشيخ وطرحت حكاية خليج العقبة نفسها على الموقف .

يُقفل الخليج أو لا يُقفل في وجه الملاحة الإسرائيلية ؟

إن إغلاق الخليج حق مصرى بمقتضى قوانين السيادة وال الحرب . ثم إن إغلاق الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية كان مطلباً عربياً يلح به الكل على مصر ، ولكن القرار لا بد أن يصدر بعد دراسة مسؤولة .

ودعية اللجنة التنفيذية العليا لاجتماع طارئ ، وطرح أمامها موضوع إغلاق خليج العقبة .

وقررت اللجنة بإجماع الآراء إغلاق الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية تمسكاً بحق السيادة ،

ونزولاً على مقتضيات حالة الحرب ، واستجابة لمطلب عربي ملح ، ثم إقرارا بأمر واقع نشأ عن سحب قوة الطوارئ الدولية من كل سيناء .

اللجنة كلها ، بإجماع الآراء ، قررت ، ولم يكن القرار انفرادياً من جمال عبد الناصر .

(الغريب أننى كتبت فى ذلك الوقت محذراً من مخاطر إغلاق خليج العقبة ، قائلاً إن هذا القرار يعني الحرب . ويومنها اتهمت علينا بالإنهزامية ، وبين الذين اتهمونى وقتها بعض الذين يتهمون جمال عبد الناصر اليوم بالتهور فى ذلك القرار !) .

□ □ □

■ ■ ■ سادساً - تقدير جمال عبد الناصر لاحتمالات الحرب .

في ذلك الوقت كانت كل المعلومات تشير إلى أن اتجاه الحشود الإسرائيلي قد تغير ، فلقد راحت القوات التي كانت في شمال إسرائيل إلى جانب قوات أخرى . تندفع بأقصى سرعة إلى الجنوب .

واستدعي جمال عبد الناصر سفير الاتحاد السوفييتي مرة أخرى إلى مقابلته ليقول له : « إن الحشود كلها الآن على الجبهة المصرية . »

لم يعد الخطر الإسرائيلي موجهاً إلى سوريا ، وإنما هو الآن موجه إلى مصر .

وفي نفس الوقت كان تقدير جمال عبد الناصر كما يلى :

١ - إنه سوف يبذل جهداً سياسياً مكثفاً لكي يحول دون اندلاع عمليات عسكرية .

٢ - إن نسبة احتمال نشوب عمليات عسكرية سوف تقل مع الوقت ومع نقل التركيز من المجال العسكري إلى المجال السياسي .

٣ - إذا حدث ونشبت عمليات عسكرية فإن القوات المسلحة المصرية سوف تكون قادرة على خوض معركة دفاعية طويلة ، إما على الخط الأول قرب الحدود الدولية ، وإما على الخط الثاني في وسط سيناء إذا اقتضى الأمر ، وإذا طالت المعركة الدفاعية فإن إسرائيل لا تستطيع تحمل استمرارها بوضع التعبئة العامة الكاملة .

٤ - إن نشوب عمليات عسكرية في الشرق الأوسط سوف يخلق أزمة مواجهة عالمية ، وذلك سوف يضغط بشدة من أجل وقف إطلاق النار وعودة القوات إلى مواقعها الأصلية .

وهكذا بدت المهمة الأولى أمام جمال عبد الناصر أن يتحرك سياسياً بأوسع ما يمكن .

□ □ □

■ سابعاً . الحركة السياسية لجمال عبد الناصر وقتها .

في تلك الظروف بدأ جمال عبد الناصر حركة سياسية ، نعلها من أصعب ما قام به في حياته ، وكان يتحرك طول الوقت ، وبأقصى ما يمكن من الفهم والحضر ، وكان يشعر أنه في مباق مع الزمن ومع الخطر .

وجاءته رسالة من الرئيس الأميركي «ليندون جونسون» بمناقش فيها تطورات الموقف معه ، ثم يطلب إليه أن يبحث معه عن صيغة لمعالجة الموقف ، ثم يقول في نهاية الرسالة : «إن الولايات المتحدة - وقوى أخرى - طلبت إلى السكرتير العام للأمم المتحدة يومي ثانٍ أن يطير إلى منطقة الأزمة ، وأن يرى ما يمكن عمله على الطبيعة ، وإنني أناشدكم أن تتعاونوا معه إلى أقصى حد ممكن» .

ورأى جمال عبد الناصر بأنه ، سيبذل كل جهده ليفتح سبلأ أمام يومي ثانٍ ، ولا يغلق أمامه طريقاً يمكن أن يؤدي إلى تخفيف حدة التوتر .

وتمكن جمال عبد الناصر من تجنيد كل جهد الجنرال دي جول الرئيس الفرنسي .

بعث إليه دي جول يرجوه أن لا يطلق الرصاصة الأولى .

ورأى دي جول بأنه لن يطلق الرصاصة الأولى .

ثم بعث إلى دي جول بملخص رسالة جونسون إليه ، وأضاف إليها تأكيده بأنه سيبذل كل جهده للتعاون مع السكرتير العام للأمم المتحدة .

وحرّك مجموعة عدم الإلحاح كلها . . . واستغل رصيده الضخم في أفريقيا كواحد من مؤسسي منظمة الوحدة الإفريقية .

وحين جاء ، يومي ثانٍ ، إلى القاهرة ، التقى به جمال عبد الناصر ومعه الدكتور محمود فوزي مستشاره للشئون الخارجية وقتها ، والميد محمود رياض وزير خارجيته وكان الاجتماع الحاسم يوم ٢٤ مايو .

وفي هذا الاجتماع بدأ جمال عبد الناصر يعرض تطورات الحوادث ، ثم بدأ يعرض وجهات نظره ، واستمر الحوار ساعات . ثم خرج يومي ثانٍ باقتراح محدد .

قال بالحرف :

« سيادة الرئيس . . . نحن الآن نحتاج إلى وقت ، ولذلك فإنني أفكر في أن أطلب إلى جميع الأطراف أن يعلنوا « موراتوريوم » على « تصرفاتهم » .

وسأله جمال عبد الناصر :

ـ ماذا تعنى « بموراتوريوم » ؟

وقال يومي ثانٍ :

ـ ، الامتناع عن الحركة . تجميد الموقف على ما هو عليه .
أطلب منك مثلاً وقف اجراءات الحصار في خليج العقبة .
أطلب من إسرائيل أن لا تتحدى الحصار .
وأطلب منك أن لا تفتش بواخر أطراف ثلاثة .
وأطلب من كل الأطراف الثلاثة أن لا تنقل بضائع استراتيجية إلى إسرائيل . أطلب تجميد
الموقف . .

وانظر يوثانت ليرى أثر كلامه .

ولكن جمال عبد الناصر استأنفه في أن يسمح له أن يتكلم بالعربية مع مساعديه : مستشاره
الدكتور محمود فوزي ووزير خارجيته محمود رياض .
ودار حديث بين الثلاثة بالعربية ، ويوثانت ينتظر .

والتفت جمال عبد الناصر إلى يوثانت وقال له :

ـ ، إنني أريد أن أتعاون معك إلى أقصى حد .

وإذا طلبت مني إعلان موراتوريوم فسوف أقبل ، ولكن الأمر مرهون بقبول الأطراف
الأخرى . .

وقال يوثانت :

ـ لهذا فإني لا أطلب ذلك منك الآن ، وإنما سوف أطلب بعد عودتي إلى نيويورك وبعد
أن أتشاور مع كل الأطراف ، وبالذات الدول الكبرى صاحبة العضوية الدائمة في مجلس الأمن ،
وسافر يوثانت .

ولم ينتظرا جمال عبد الناصر ساكناً .

وإنما أصدر أوامره بتخفيف اجراءات الحصار عن خليج العقبة . إلا فيما يتعلق ببواخر
الإسرائيلية . ويتوجب أي حادث مفاجئ يمكن أن يفجره تطبيقها .

وأصل اتصالاته مع ديوجول .

وبعث وفداً خاصاً إلى موسكو .

وبعد أيام ، وبالتحديد يوم ٣٠ مايو جاءته الرسالة المنتظرة من يوثانت ، وكان نصّها - وأنا
أنقل عن أوراق الأمم المتحدة . كما يلى بالحرف :
ـ سيادة الرئيس .

إنني أعرف من محادثاتي الأخيرة معكم ومع وزير الخارجية محمود رياض ، أنكم تدركون
 تماماً الدوافع التي تدعوني إلى توجيه هذا النداء الشخصي والعاجل إليكم .

إنكم سوف تلاحظون أن ما أطلبه منكم ينبع فقط من رغبتي ومن مسؤوليتي العميقة التي تدعوني إلى عمل كل شيء في استطاعتي من أجل تفادى كارثة تشوب حرب جديدة في الشرق الأوسط.

وخلال زيارتى للقاهرة فإن موقفكم وسياستكم في مسألة خليج العقبة قد جرى إيضاحها لي ، وأريد أن أركز على الأهمية الكبرى التي أعلقها على رد فعل إيجابى من جانبكم لمناشدتى هذه لكم ، بدون تأثير ضار على موقفكم أو سياستكم .

إننى أطلب وقتاً ، ولو فسحة محدودة من الوقت ، لكي أستطيع أن أعطى فرصة للمشاورات وللجهود الدولية التي تحاول أن تبحث عن مخرج من الموقف الحرج الراهن . . . وأريد أن ألفت انتباحكم بصفة خاصة إلى ما قلته فى تقريرى إلى مجلس الأمن بتاريخ ٢٦ مايو . إننى أرى أن إيجاد مخرج سلمى من هذه الأزمة يتوقف على فسحة من الوقت يمكن فيها تخفيف حدة التوتر من مستوى المتفجر الحالى .

وبناءً على ذلك فإلننى هنا أدعو جميع الأطراف المعنية إلى ممارسة ضبط النفس ، وإلى تجنب أي أعمال عدائية يكون من شأنها زيادة التوتر ، وهدفى من ذلك أن أعطى مجلس الأمن فرصة لعلاج المشاكل التى تتطوى عليها الأزمة ، والبحث عن حلول لها .

وإنى الآن أناشدك يا سيادة الرئيس ، كما أناشد رئيس الوزراء اشكول وكل الأطراف المعنية إلى ممارسة الحذر عند هذا المنعطف الخطير .

وبالذات ، وبدون طلب أي تعهدات منكم ، أو حتى رد ، فإنى أريد أن أعرب عن الأمل فى أن تتمتعوا خلال مدة أسبوعين من لحظة استلامكم لهذه الرسالة . عن أي تدخل فى الملاحة غير الإسرائيلية عبر مضائق تيران .

وفي هذاخصوص فهل لي أن أخطركم ، وفي كل الأحوال ، أن لدى من الأساليب ما يجعلنى أفهم أنه فى الظروف العادية فإنه ليس متوفعاً أن تحاول أي باخرة إسرائيلية عبور مضائق تيران خلال مدة الأسبوعين المحذفين بل إننى أستطيع أن أؤكد لكم ، حسب أدق المعلومات لدى ، بأنه خلال السنتين والنصف الأخيرتين لم تقم أي باخرة ترفع العلم الإسرائيلي بالمرور فى مضائق تيران .

وأستطيع أن أكرر لكم ، يا سيادة الرئيس ، أننى بصفة خاصة ، وكذلك المجتمع资料的 الدولى كله بصفة عامة ، سوف نقدر تقديرأ كبيراً هذه المبادرة من جانبكم .

وارجوكم أن تقبلوا يا سيادة الرئيس أصدق أمالى واحترامى الشخصى .

، يوم ثالث ،

هذه البرقية . وهى تنشر الآن لأول مرة - كان لها تأثير كبير فى القاهرة ، وكانت دراستها تفصيلاً تعطى إشارات واضحة :

- ١ - إن هذه الرسالة لم تكن لتصدر عن يوئانت إلا وهي موضع اتفاق بين القوى الكبرى ، وبالذات الولايات المتحدة .
 - ٢ - إن التأكيد على عدم توقيع مرور بواخر إسرائيل تتحدى الحصار معناه أن يوئانت كان على اتصال مباشر أو غير مباشر بإسرائيل .
 - ٣ - إن حدة الأزمة ربما تتوقف عند الدرجة التي بلغتها الآن .
 - ٤ - إن هناك أسبوعين قادمين من الانتظار قبل أن تتحرك الحوادث .
- كانت هذه الرسالة بتاريخ ٣٠ مايو .

ثم تأكيد هذا كله برسالة الرئيس « جونسون » المباشرة إلى جمال عبد الناصر يرجوه في مقابلة ممثل شخصي له ، وهو « روبرت أندرسون » ، الذي جاء بالفعل وقابل جمال عبد الناصر ، ثم تم الاتفاق بينهما على رحلة يقوم بها نائب رئيس الجمهورية المصرية السيد زكريا محيى الدين إلى واشنطن لمقابلة الرئيس « جونسون » والتباحث معه . ثم غادر « أندرسون » القاهرة ، وبعث إلى جمال عبد الناصر ببرقية من روما يؤكد فيها أن الرئيس الأمريكي سوف يكون في انتظار زكريا محيى الدين صباح يوم الثلاثاء ٦ يونيو ! .

□ □ □

■ ■ ظاماً : ماذا حدث إذن بعد ذلك ؟ ■ ■

كان من حق جمال عبد الناصر أن يستريح وأن يتصور أن التوتر تخف حنته ، والغريب أنه لم يسترح وإنما ذهب يوم الجمعة ٢ يونيو ليحضر اجتماعاً للقيادة العامة للقوات المسلحة ، يقول فيه :

ـ إنه يخشى من الأيام الثلاثة القادمة .

وكان في تلك الفترة بين عاملين :

● عامل الإطمئنان على سير تطورات الحركة السياسية .

● عامل القلق على احتمالات ضربة إسرائيلية مفاجئة ، ثم كان في ذهنه أنه مهما كانت الظروف فإن القوات المسلحة قادرة على خوض معركة دفاعية طويلة النفس .

وما لم يكن يعرفه جمال عبد الناصر في ذلك الوقت هو أن الولايات المتحدة - كما ثبت عملياً فيما بعد - كانت تتحرك بمسامitin :

● سياسة في وزارة الخارجية .

● وسياسة أخرى في وكالة المخابرات المركزية .

كانت وزارة الخارجية تتعامل مع يوئانت . . . أو هكذا تقول ا وكانت المخابرات المركزية تتعامل مع المؤسسة العسكرية في إسرائيل وهذا الآن مؤكد !

و جاء صباح يوم الإثنين ٥ يونيو ، واختلفت التطورات مع تقديرات جمال عبد الناصر ،
خصوصاً فيما يتعلق بـ « معركة دفاعية ذات نفس طويل » .

و وقع الخطأان القاتلان :

١ - ضربة الطيران الإسرائيلي ، والطريقة التي نجحت بها هذه الضربة .

٢ - قرار الإسحاب من سيناء ، وقد صدر صباح ٦ يونيو .

و أخفقت جسمة ضربة الطيران عن جمال عبد الناصر . . . ولم يعرف بقرار الإسحاب ،
إلا بعد صدوره بوقت طويل .

و لا أريد أن أخوض هنا في تفاصيل أكثر . . .

□ □ □

■ ■ تاسعاً : الهزيمة

لقد نسينا عندما وقعت الهزيمة أن حربنا مستمرة .

١ - كان شعورنا بالمهانة شديداً ، وللهذا أسباب تبرره ، ولكننا كان يجب أن ندرك أن بين
أهداف أعداء العرب تلطيخ سمعة الجيش المصري ، وإقناع الشعب المصري والأمة العربية
أنه ليس في مقدور أيهما أن يعتمد عليه .

كان من أهدافهم أن يسوقوا الشعور بالمهانة ، وأن يتربّب هذا الشعور بالمهانة إلى
أعمق أعمقنا . . . وساعدناهم وشرينا .

لقد هزمت أمم قبلينا في معارك ، ولكنها لم تعتبر هزيمة معركة خسارة للحرب ، طالما
أنها تمنك إرادتها .

لم تشعر أمريكا بالمهانة بعد « بيرل هاربور » ، وقيام السلاح الجوي الياباني بتدمر كل
الأسطول الأمريكي . . . وإنما شعرت بالتصميم .

ولم تشعر بريطانيا بذلك بعد الهزيمة الساحقة في « دنكرك » . . . وإنما شعرت
بالتصميم .

بل إن فرنسا التي استسلمت لهتلر . . . استغلت مقاومة ضابط واحد رفض الهزيمة ، وهو
« ديجول » . . . واعتبرته ممثلاً لإرادتها ، واعتبرت انتصار الحلفاء انتصاراً لها .

أما نحن ، فلم نفعل ذلك .

كانوا يريدون أن يصيروا لنا المهانة . . . وكذا نحن على استعداد ، وبشدة ، أن
نستوردها !

- ٢ - كان الشعور في العالم العربي بخيبة الأمل شديداً . وكان له ما يبرره بطبيعة الحال . ولكن كان لا بد أن يتذكر الجميع أنه بداية ونهاية ليس هناك غير هذا الجيش المصري في الخط الأول . ومع جيوش عربية أخرى . يستأنف القتال .
- ٣ . الغريب أنه مع ظهور دور ، التواطؤ ، الأمريكي ، فقد ظل اللوم يُصنَّب على مصر وقيادتها وجيشهما بمنطق هؤلاء الذين لا يقولون للضارب لا تضرب ولكن يقولون للمضروب لا تصرخ ، ١ .

□ □ □

■ ■ ■ عاشراً : مسؤولية جمال عبد الناصر

وجمال عبد الناصر مسؤول ، ولا يمكن لأحد أن يغافله من مسؤوليته ، بل ولم يقبل هو بديلأ عن الإعتراف بها كاملة ، ولم يتمسح بشيء ، ولا توارى خلف أحد .
وعندما يجويه وقت الحكم التاريخي عليه في مسألة الهزيمة ، فلا بد أن توضع في الإعتبار عوامل كثيرة :

- ١ - ظروف الأزمة وتداعيها ، وهل كان في وسعه أن يتقاус عن نجدة سوريا ؟
 - ٢ - قيادته للحركة السياسية في الأزمة ، والطريقة التي حاول بها تنادي الإنقجار .
 - ٣ - تمثيله للإرادة العربية في الصمود بعد الهزيمة ، وهذا في حد ذاته من أمجد مواقفه ، فالهزيمة الحقيقة هي هزيمة الإرادة ، وليس الهزيمة هي التراجع عن أرض ... خصوصاً وأن الصراع طويل ومستمر .
 - ٤ - نجاحه في إعادة بناء القوات المسلحة في ظرف ستة شهور من الهزيمة .
 - ٥ - عودته إلى ميدان القتال طبقاً لسياسة الدفاع - والردع - والتحرير ، وقد بلغت عودته إلى ميدان القتال قمتها في حرب الاستنزاف التي هي الجولة الرابعة في الحرب العربية - الإسرائيلية .
 - ٦ - استعداده وتحطيمه لمعركة التحرير .
 - ٧ - ثم إن الهزيمة بكل مسؤولياتها يجب أن توضع في إطارها من كفاحه كله ، فلم تكن معركة ٥ يونيو هي معركته الوحيدة ، وإنما كانت واحدة من معاركه ... نجح في بعضها ، ولم ينجح في البعض الآخر .
- وبعد مئات السنين ، وحينما يكتب التاريخ بشرف وأمانة ، وبغير أحقاد وعقد ، فإن التاريخ سوف ينصف جمال عبد الناصر حتى في هزيمة منة ١٩٦٧ ... أبسط ما سوف يقال عنه :

أنه كان رجلاً . . . تحمل مسؤوليته بشجاعة ، وتقبل الحساب عنها في كبرياته . . .
ومثل كرامة وإرادة أمة بأسرها في يوم من أحلك أيامها . . . وكان وسط الظلم
والعواصف والمؤامرات الدولية إنساناً آمن بوطنه وأمته وبمثلهما العليا ، وأعطى حياته
لخدمة هذه المثل بشرف ، وأصاب مرات ، وأخطأ مرات ، لكنه حارب طول الوقت بإيمان
ويقين ، ولم يستسلم حتى النafs الأخير . . . وكذلك يفعل الرجال .

الحادي
العاشر

الصادم مع
الولايات المتحدة الأمريكية

ولا يسكنون . . .

كلما ضاعت منهم حجة جاءوا بغيرها ، وكلما طاش لهم منهم في القضاء أمرعوا إلى الجعة
يبحثون عن منهم آخر ويصوبون !

ـ لقد بادر الولايات المتحدة الأمريكية بالعداء ، ولم يعطها نفساً حلواً ، ولا طالعها بوجه
مبتسم . . . ما لنا نحن والولايات المتحدة وهي القوة الأعظم القادرة على النفع والضرر . . .
ثم ماذا كانت نتيجة عدائه لها غير انحيازها الكامل إلى جانب إسرائيل وغير ضغوطها علينا
تشتد حتى كسرت لنا الضلوع ؟ !

ونسأل :

ـ هل فعل جمال عبد الناصر ذلك ، وهل اندفع فعلاً كالثور الأحمق إلى معركة غير
متكافئة ؟

وتقول لنا نظرة واحدة على خريطة أحداث الشرق الأوسط منذ سنة ١٩٥٦ أن ذلك لم
يحدث . . . بل الغرابة أن ما حدث هو عكس ما يقولون .

لقد بدأ جمال عبد الناصر دوره على الساحة المصرية والعربية وهو يحسنظن كثيراً
بالولايات المتحدة الأمريكية ومبادئها وسمائاتها ، وكانت الورقة الأمريكية في ظنه . ذلك الوقت .
ورقة محترمة وقوية وحظها في النجاح أقرب من حظوظ غيرها من أوراق لعبة الشرق الأوسط .
كانت الولايات المتحدة خارجة من الحرب العالمية ضد الفاشية في مكانة الديمقراطية الكبرى ،
وكانت الأفلام الأمريكية تعطى صورة مغربية عن مجتمع جديد ، ولم تكن هناك بعد وكالة مخابرات
مركزية ، ولا كان هناك ضغط بالمعونات أو بالحصار الاقتصادي أو بغارات الحرب النفسية . لم

بكن صورة الأمريكي القبيح قد رسمت بعد ، ولا كان هناك ، خليج خنازير ، في كوبا ، أو منبحة مای لای ، في فيتنام .

وكانـت القرـة الأعـظم الثـانية . شـريـكة انتـصار الحـرب ضدـ الفـاشـية . وهـى الإـتحـاد السـوفـيـتـى . ما زـالت بـعد تـحدـت حـكـم سـتـالـين .

وـكـانـت بـريـطـانـيا هـى عـدوـ العـرب فـي المـشـرق . . . وـفـرـنسـا عـدوـهم فـي المـغـرب . وهـذا كـانـ الـخـيـار الـأـمـريـكـى يـفـرـض نـفـسـه ، لا عـلـى جـمـال عـبـد النـاـصـر وـحـده ، وإنـما عـلـى مـعـظـم قـيـادـات حـرـكـة الثـورـة الوـطـنـيـة .

وـاستـعمل جـمـال عـبـد النـاـصـر الـوـرـقة الـأـمـريـكـيـة فـي الضـغـط عـلـى بـريـطـانـيا مـن أـجلـ الجـلاء ، وـحاـول أـن يـحـصـل مـنـهـا ، بـعـد ثـلـاثـة شـهـور مـنـ الثـورـة ، عـلـى سـلاحـ لـلـجـيش الـمـصـرى ، وـتـلـقـى وـعـداـ بـذـلـك ، ثـمـ حدـثـ تـرـاجـعـ عـنـ الـوـعـد وـقـيلـ لهـ فـي تـبـرـيرـ ذـلـكـ بالـحـرفـ :

لـقـدـ كـانـتـ فـائـمة طـلـبـاتـكـ مـنـ السـلاحـ عـلـى مـكـتبـ الرـئـيسـ الـأـمـريـكـيـ الجـديـد . دـوـاـيـتـ أـيزـنـهاـور . وـكـانـ عـلـى وـشكـ أـنـ يـبـيـثـ فـيـهاـ بـالـموـافـقـة ، وـلـكـنـ وـنـسـتونـ تـشـرـشـل . رـئـيسـ وزـراءـ بـريـطـانـيا . اـتـصلـ بـهـ تـلـيفـونـيـا وـقـالـ هـلـ صـحـيـحـ أـنـكـ سـتـبـعـ سـلاـحـاـ لـمـصـر ؟ ، وـرـدـ عـلـيـهـ أـيزـنـهاـورـ بـأـنـهـ عـلـى وـشكـ اـتـخـاذـ قـرـارـ . وـنـاـشـدـهـ تـشـرـشـلـ أـنـ يـؤـجـلـ ، لـأـنـ جـمـالـ عـبـدـ النـاـصـرـ يـهـذـ بـحـربـ شـعـبـيـةـ فـي مـنـطـقـةـ الـقـنـاءـ لـإـجـهـارـ الـجـيشـ الـبـرـيطـانـيـ عـلـىـ الـإـنـسـاحـ . ثـمـ أـصـافـ تـشـرـشـلـ ، إـنـكـ لـنـ قـرـضـيـ أـنـ تـعـطـىـ لـمـصـرـيـنـ سـلاـحـاـ يـقـتـلـونـ بـهـ جـنـودـ الـجـيشـ الـبـرـيطـانـيـ الـذـيـنـ كـانـواـ تـحـتـ قـيـادـتـكـ فـيـ الـحـربـ الـعـالـمـيـةـ الثـانـيـةـ . وـتـرـددـ أـيزـنـهاـورـ .

حتـىـ ذـلـكـ الـوقـتـ . فـبـرـاـيرـ ١٩٥٣ـ . كـانـ جـمـالـ عـبـدـ النـاـصـرـ يـحـسـنـ الـظنـ بـالـأـمـريـكـيـنـ وـيـجـدـ عـذـرـهـمـ فـيـ الإـسـتـجـابـةـ لـحـفـائـهـمـ ، خـصـوصـاـ عـلـىـ الـمـسـتـوىـ الـعـاطـفـيـ ، عـذـراـ مـقـبـولاـ . وـصـدـقـ ماـ قـالـوهـ لـهـ ، وـاسـتـجـابـ لـلـبـرـةـ الـوـدـ الـمـشـوـبـةـ بـالـأـسـفـ فـيـ اـعـتـذـارـهـ لـهـ .

وـمـنـ نـاحـيـتـهـ ، فـلـسـتـ أـعـتـقـدـ أـنـ الـأـمـريـكـيـنـ . فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ . أـحـسـنـواـ تـقـيـيمـ وـتـقـدـيرـ جـمـالـ عـبـدـ النـاـصـرـ ، وـثـورـتـهـ فـيـ مـصـرـ ، وـصـدـاـهـاـ فـيـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ .

تـصـورـوـهـ انـقـلـابـيـاـ مـنـ نـوـعـ ماـ عـرـفـاـ فـيـ أـمـريـكاـ الـلـاتـينـيـةـ أـوـ غـيـرـهـاـ . . ضـابـطـ شـابـ ، يـقـفزـ عـلـىـ السـلـطـةـ بـالـدـبـابـةـ وـالـمـدـفعـ ؛ وـفـيـ الـيـوـمـ الـأـوـلـ يـعـلـنـ عـلـىـ شـعـبـهـ آـمـالـاـ فـيـ التـغـيـيرـ بـلـاحـدـ ، وـلـكـنـ الـيـوـمـ الـثـانـيـ يـجـيءـ ، فـإـذـاـ بـطـلـ الـأـحـلـامـ لـاـ يـغـيـرـ ، وـإـنـماـ يـتـغـيـرـ . يـلـبـسـ رـداءـ السـلـطـةـ ثـمـ يـجـمـدـ الـأـمـرـ الـوـاقـعـ وـيـثـبـتـهـ ، وـتـذـهـبـ الـأـحـلـامـ إـلـىـ صـحـارـىـ الـضـيـاعـ . . سـرـابـاـ رـأـتـهـ الـعـيـونـ لـحـظـةـ ، وـاتـجـهـتـ إـلـيـهـ الـأـقـدـامـ فـيـ شـوـقـ ، فـلـمـ تـجـدـهـ حـيـثـ تـصـوـرـتـهـ ، وـلـمـ تـعـثـرـ لـهـ عـلـىـ أـثـرـ !

وـنـسـطـطـيـعـ القـولـ بـأـنـ جـمـالـ عـبـدـ النـاـصـرـ لـمـ يـقـلـ عـلـىـ الـخـيـارـ الـأـمـريـكـىـ مـتـصـوـرـاـ أـنـ الـطـرـيقـ مـفـتوـحـ وـالـرـيـحـ رـخـاءـ ، فـلـقـدـ قـدـرـ مـنـذـ الـبـدـاـيـةـ أـنـ هـنـاكـ أـمـبـاـيـاـ حـقـيقـيـةـ لـمـشـاـكـلـ مـعـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدةـ تـرـجـعـ فـيـ مـعـظـمـهـاـ إـلـيـهـ ماـ رـأـهـ وـقـتهاـ ، وـوـصـفـهـ بـتـعـبـيرـ : الـمـأـزـقـ الـأـمـريـكـىـ .

والمازن الأمريكي . كما تصوره وشخصه وقتها :

أن الولايات المتحدة تجد مصالحها كلها مع العرب .

ولكن الولايات المتحدة ترتبط بإسرائيل بأكثر من سبب : منها اعتبارات العاطفية ، ومنها التأثير الصهيوني في الحياة الأمريكية ، ومنها ما يعتقد راسمو السياسة في واشنطن من أن صمام الأمان النهائي في السيطرة على المنطقة هو إسرائيل .
كان يرى ذلك مازقاً .

وتصور أنه إذا استطاع أن يساعد على إيجاد حل لهذا المأزق ، أو حتى صيغة تعامل مقبول . إذن فإن الولايات المتحدة سوف تغلب مصالحها على أية اعتبارات أخرى ، خصوصاً إذا نعمت ثقة متبادلة بين الطرفين . . . بالتعامل الحر وال الحوار المفتوح وحسن النية العسيق .

وفوجيء جمال عبد الناصر بالتجربة ، ووقائع التجربة مع الولايات المتحدة ، وفي النهاية كانت له عبارة ترسم خيبة أمله فيها كلها . وكان يقولها في ألم :

- على كل بقعة من جسمى كى بالذار ، مما فعلوه بنا ، أو حاولوه معنا !
ومع ذلك لا تنسق الواقع .

□ □ □

بدأت الواقعة - أو الموقعة . الأولى بين جمال عبد الناصر وبين الولايات المتحدة في قضية الأحلاف ، لوحوا له بأنهم سوف يساعدون في اقناع الإنجليز بالجلاء ، إذا هو انضم في حلف دفاعي مع الغرب في الشرق الأوسط .

وحاول أن يشرح وجهة نظره ، لجون فورستر دالامن ، وزير خارجية الولايات المتحدة عندما جاء إلى مصر في ربيع سنة ١٩٥٣ . قال له :

- لا أتصور أن في مقدورنا أن نقبل حلفاً دفاعياً تتحول به قوة الاحتلال من عدو إلى حليف ، وبدلًا من العلم البريطاني على قواعد القناة ، يرفع علم الحلف .

نحن نريد الاستقلال أولاً لكي تكون لنا إرادة حرّة نقر بها إذا كانت الأحلاف في صالحنا ، أو هي في غير صالحنا .

وربما قلت لك من الآن أنت لا تراها في صالحنا ، فلست أفهم كيف ننضم إلى حلف ضد الاتحاد السوفييتي وهو بعيد عننا لم يباشرنا بعداء ، ثم ننسى أن عداؤنا الحقيقي هو مع هؤلاء الذين احتلوا أرضنا من أكثر من سبعين عاماً .

ثم إنني لا أعتبر أن الشيوعية خطراً علينا ، وإذا كانت خطراً فإن مقاومتها لا تكون بالأحلاف العسكرية ، لأن السوفييت لن يهاجموا الشرق الأوسط بالجيش الأحمر ، وإنما

سوف يحاولون - إذا حاولوا - النفذ من جهات داخلية سامت أوضاعها بسبب التخلف والإستغلال والتبعية ، ومن هنا فإن دفاعنا الحقيقي ضد الشيوعية يكون بالوطنية بمعناها الحقيقي بكونها خلاصاً من التبعية ، وعملاً ضد التخلف ، وعديلاً يجد فيه المواطن حياته وكرامته .

ومهما يكن فإني أسلم بأنه قد تكون هناك أخطار علينا ، ولو هذه الأخطار إسرائيل ، ووسيلتنا في مقاومة هذه الأخطار هي ميثاق الدفاع العربي المشترك ، أما حلف للدفاع عن الشرق الأوسط ، فإني أخشى أننى فيه مسؤول أجد نفسي حليفاً لإسرائيل التي تعتبرها شعورينا كلها عدوها الرئيسي في هذه المرحلة ! .

ولم يفهم جون فوستر دالاس .

وصدرت الإشارة بترك القاهرة جانبًا ، والاتجاه إلى بغداد لتكون نواة حلف الدفاع عن الشرق الأوسط ، ثم بدأ الضغط على غير بغداد من عواصم الهلال الخصيب . واضطر جمال عبد الناصر إلى أن يقاوم . . وقاوم حلف بغداد دون أن يسد طرقاً أو ينسف جسوراً تقطع المواصلات مع الولايات المتحدة .

□ □ □

ويأتي الموقعة الثانية من قلب تلك الموقعة الأولى ، فقد تصور « دالاس » أنه إذا استطاع أن يربّت لصلح بين مصر وإسرائيل ، فإن ذلك سوف يزيل أكبر عقبات اشتراك مصر في حلف بغداد .

وطارت بعثة في السر إلى القاهرة ، برأسها « روبرت أندرسون » الذي كان وزيرًا للخزانة مع أيزنهاور ، وللتقي مع جمال عبد الناصر ، وعرض عليه رغبة الولايات المتحدة في السعي لصلح بين مصر وإسرائيل ، ولم يجادله جمال عبد الناصر ، وإنما وضع أمامه شروطه ، وكانت :

● حق شعب فلسطين في تقرير مصيره على أرضه .

● ثم أن تطمئن مصر إلى أن الاتصال البري بينها وبين بقية العالم العربي في المشرق مفتوح ، ولا يكون ذلك إلا بتراجع إسرائيل عن النكبة .

وسافر « أندرسون » إلى إسرائيل ليقابل « بن جوريون » وعاد يقول لعبد الناصر : « إن بن جوريون ذعر عندما سمع اقتراحاته ، فمعها أن لا تكون هناك إسرائيل » . واستطرد « أندرسون » يقول إن « بن جوريون » عرض اقتراحًا وجبيًا ، وهو أن يلتقي مع جمال عبد الناصر وجهاً لوجه ، وأن يجيء إليه هو في القاهرة . أو أى مكان غيرها يحدده . سرًا أو علنًا ، حسبما يختار .

ورفض جمال عبد الناصر قائلاً لأندرسون :

ـ لا أستطيع مقابلته لمائة سبب ، على الأقل .

أولها أنه إذا جاء لمقابلتي في القاهرة فإني لا أستطيع أن أضمن سلامته . . . وإذا ذهبت للقاهرة خارج مصر ، فما أظنني أستطيع العودة إليها ،
ولم يفهمه أندرسون . . . ولا فهمه دالاس ، . . . ولا فهمه أيرنهاور ،
وبدأت الشكوك من الناحيتين .

□ □ □

وجاءت الموقعة الثالثة حين ألح جمال عبد الناصر في طلب السلاح من الولايات المتحدة ، فلما أحس أنه لن يحصل على ما طلب ، توجه إلى الإتحاد السوفييتي ، ولم يعقد صفقة سلاح فقط ، وإنما كسر احتكار السلاح في المنطقة إلى الأبد .

و甄 جنون دالاس وبعث إلى جمال عبد الناصر بإذنار شفوي :
ـ إنه سوف يقطع المعونة الاقتصادية عن مصر (لم تكن هناك بعد معونة ، وإنما كان هناك وعد بها) .

ثمـ إنه سوف يقطع كل تعامل أمريكي مع مصر ، .

ـ ثمـ إنه على استعداد لقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر ، .

وأخيراً ، فإنه على استعداد لأن يصل إلى حد فرض حصار بالأسطول السادس على الشواطئ المصرية ، يمنع وصول السلاح السوفييتي إليها ، .

ورفض جمال عبد الناصر الإنذار ، وقرر دالاس أن يرسل مساعدته في وزارة الخارجية « جورج آلين » بإذنار مكتوب . وبعث جمال عبد الناصر إلى السفارة الأمريكية يقول إنه سوف يقابل « جورج آلين » ، ولكنه إذا اشتم في كلامه رائحة تهديد أو إنذار ، فسوف يطرده على الفور من مكتبه .

وادرك دالاس أنه أمام خصم مستعد للمقاومة قادر عليها ، فترك التهديد إلى الإغراء ، وكان قوله :

ـ ليكن . . . إن الإتحاد السوفييتي يصادر لكم أدوات الموت . . وأما نحن فسوف نصدر لكم أدوات الحياة ، وهكذا فقد قررنا مساعدتكم في مشروع بناء العد العالى الذى تتحدثون عنه وتحلمون ببنائه ، .

ثم أبدى دالاس بعد فترة تخوفه من استمرار تدفق السلاح على مصر بحجة أن ذلك سوف يستنفذ مواردها ولا يستبقى منها شيئاً للعد العالى ، وهكذا طلب وقف مشتريات السلاح من الإتحاد السوفييتي ، ثم طلب وقف المقاومة ضد حلف بغداد .

ورفض جمال عبد الناصر .

وكان قرار دالاس بسحب عرض المساهمة في تمويل المدّ العالى .

ورد عبد الناصر بتأمين قناة السويس . وجاء العدوان البريطانى الفرنسى الإسرائيلي ، ووقف العالم كله على حافة الهاوية .

واضطرَّ دالاس بعد الإنذار السوفياتي إلى التعاون لفك الأزمة الخطيرة .

ولكنه لم يغفر لجمال عبد الناصر ما فعل ، وكانت تلك هي الفترة التي بحث فيها أمر جمال عبد الناصر في اجتماع المخابرات المركزية ، وقال جون فورستر دالاس لشقيقه آلان دالاس ، وهو مدير المخابرات المركزية وقتها :

-، ألا تستطيع المخابرات تصفيه مشكلة عبد الناصر .

وهز آلان دالاس رأسه ، وبدأت وكالته ترسل فرق الإغتيال واحدة بعد واحدة لاصطياد جمال عبد الناصر .

□ □ □

ثم الموقعة الرابعة :

. . . دالاس يحاول تنفيذ أهداف العدوان الثلاثي بوسائل أخرى . الحصار الاقتصادي ، ثم الحصار السياسي عن طريق عزل مصر بمشروع أيزنهاور ، ثم الضغط على سوريا أكبر حلفائه بحكم دورها التاريخي في الحركة القومية .

وأفلت عبد الناصر من الحصار الاقتصادي ، ولم ينجح الحصار السياسي في عزل مصر ، وإنما سقط مشروع أيزنهاور ، وبدأ التفكير في غزو سوريا ، وإذا قوة مصرية تذهب إلى سوريا ، ثم إذا الوحدة تعلن ، ثم إذا حلف بغداد ينهار في بغداد ، وجرى الأسطول الأمريكي فاقتحم الشواطئ اللبنانية ، ثم اكتشف دالاس أن الولايات المتحدة لن تستطيع إرغام العالم العربي على الركوع ب مجرد ظهور بحارة الأسطول الأمريكي السادس على رمال الشاطئ في بيروت .

وأصبح الموقف شديد القوتر ، واضطرَّ دالاس إلى التراجع ، ثم عاد أيزنهاور يحاول استرضاء عبد الناصر بشحنات من القمح الأمريكي لمصر ، ولكن ما في القلب بقى في القلب !

□ □ □

ومع بداية عصر جون كينيدي - ١٩٦١ - ورئاسته للولايات المتحدة الأمريكية . جرت الموقعة الخامسة .

بدأ كينيدي بسياسة تدعو إلى ارتياح ، الآفاق الجديدة ، وتصوّر أن الشرق الأوسط أفق من

هذه الأفاق ، يستطيع أن يترك عليه بصمات أصابعه ، وبدأ مراملات . استمرت طويلاً . مع جمال عبد الناصر .

وكانت أولى الرسائل عن العلاقات بين مصر وإسرائيل ، وأفاض كنيدى في مزايا السلام إذا تحقق على الأرض المقدسة .

ورد جمال عبد الناصر بخطابه المشهور الذي قال فيه عن وعد بلفور : إن من لا يملك أعطى وعداً لمن لا يستحق ، وضاعت بذلك حقوق شعب فلسطين .

وأطلقت الرسائل ذاتية عائدة من واشنطن إلى القاهرة وبالعكس ، واكتشف جون كنيدى أن الأمر أعقد مما تصور ، وصدرت الإشارة إلى المخابرات الأمريكية ، فعادت تحاول ضد مصر ، وهدفها في ذلك الوقت كسر الوحدة بينها وبين سوريا .

وتحقق لها ما أرادت ، وتصورت أن ضرب الوحدة في سوريا سوف يعقبه التكسار النظام وسقوطه في القاهرة . ولكن جمال عبد الناصر كان يقاوم بشدة وضراوة رغم صدمة الإنفصال .

□ □ □

في عصر كنيدى أيضاً جاءت الموجة السادسة .

مصر تبني صناعة طائرات وصناعة صواريخ ، وإسرائيل تشكو من نشاط علماء المان جاءت بهم مصر لمساعدتها في مشروعها الطموح .

وكتب كنيدى إلى عبد الناصر مستفسراً ، ورد جمال عبد الناصر بقوله : أريد أن أكون واضحاً وعملياً .

إننا نحاول بناء صناعة طائرات ، وبناء صناعة صواريخ ، ولكن أمامنا وقتاً طويلاً لتصبح هذه الصناعات عماداً لتسليحتنا .

إن هدفي منها بالدرجة الأولى في هذه المرحلة ، هو الحصول على تكنولوجيا عصر جديد .

(من الغريب أن البعض هاجموا جمال عبد الناصر في صناعة الطائرات والصواريخ ، واعتبروا ما صرف عليها في ذلك الوقت تبذيراً لأموال لا داعي لتبذيرها .

ومررت الأيام ، وجاء الوقت الذي أصبحت فيه هذه المصانع هي نصيب مصر العينى في إقامة مؤسسة صناعات الأسلحة العربية ، وقُوِّمت حين قُوِّمت في أصول هذه المؤسسة بأكثر مما دفع فيها عند إنشائها) .

ووُجِدَت الولايات المتحدة أن ما قاله عبد الناصر ليس مدعاة للطمأنينة وإنما هو مدعاة

لمزيد من القلق . . . فأخطر من بناء الطائرات والصواريخ ، أن تكون لدى مصر معرفة واستيعاب لـ تكنولوجيا عصر جديد .

وكانت إسرائيل لا تكف عن الشكوى لأن جمال عبد الناصر أغلق أمامها سوق السلاح في بريطانيا التي اكتوت أصابعها بالنار في السويس ، ثم أغلق أمامها سوق السلاح في فرنسا حين أنشأ خط علاقات مباشر بينه وبين الجنرال ديغول .

وقرر جون كنيدي أن تدخل الولايات المتحدة لأول مرة في دور باائع السلاح لإسرائيل ، وهكذا عقد معها صفقة لعدد من بطاريات صواريخ هوك .

وكتب إلى جمال عبد الناصر أسوأ رسالة في سلسلة مراسلاتهما .

قال جون كنيدي في رسالته ما مؤده أن الولايات المتحدة فررت تقديم شحنات أسلحة محدودة إلى إسرائيل ، وأنه إذا التهزم مصر بهذه الفرصة للقيام بحملة دعائية واسعة ضد الولايات المتحدة في العالم العربي ، فإن واشنطن سوف ترد على ذلك بإرسال المزيد من الأسلحة إلى إسرائيل !

ولم يسكت جمال عبد الناصر ، بالطبع ، وبدأت حدة التوتر في العلاقات تزداد .

□ □ □

والموقة السابعة في عصر جون كنيدي هي الأخرى .

كانت الولايات المتحدة مشغولة بأزمة الصواريخ في كوبا ، وقد وصلت هذه الأزمة إلى حدود خطرة تهدد بمواجهة نووية بين القوتين العظميين .

وفي تلك الم ساعات اتخذ القرار المصري بالتدخل لنجد نجدة ثورة اليمن .

وحين رفع كنيدي عينيه عن أزمة الصواريخ ، فوجيء بالوجود المصري العسكري في جنوب شبه الجزيرة العربية .

ويذل جون كنيدي في البداية محاولاته لسحب مصر قواتها من اليمن ، ثم تغيرت الإستراتيجية .

بدلاً من حيث مصر أو تطمينها لسحب قواتها من اليمن ، بدأت استراتيجية أخرى تفرض على مصر أن ترسل جزءاً كبيراً من قواتها إلى اليمن .

وهذا يظهر الدور الكبير الذي قامت به وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في تجنيد قوة مرتزقة من الأجانب بحاربيون ضد مصر في اليمن .

في وقت من الأوقات بلغ عددهم اثنى عشر ألفاً .

واستطاعت المخابرات المركزية الأمريكية أن تحصل على مساعدة إسرائيل لهم ، فقد

تكلل الطيران الإسرائيلي بعمليات إسقاط المون والذخائر لهم في مواقع محددة بالقرب من مكانتهم في الكهوف وعلى الجبال وفي الوديان .

وأدى ذلك بالطبع إلى تعقيدات كثيرة ، فلم تكن هذه المشكلة مشكلة دعاية أو سياسة .. أو اختلاف وجهات نظر ، وإنما اصطبغ الخلاف بلون الدم .

□ □ □

ومسقط كنيدى في مدينة « دالامن » - « تكساس » - برصاصات شاب مجهول هو « لي أوزوالد » وخلفه ، ليندون جونسون ، ومعه الموقعة الثامنة .

وبعد ، جونسون ، إلى جمال عبد الناصر يطلب للولايات المتحدة حق الهيمنة على موازين السلاح في المنطقة ، بدعوى ضرورة تحديده ، حتى لا يكون من تكتيشه حافز لاستعماله حتى ضد نواباً الأطراف ورغباتهم .

وهكذا تقدم ، جونسون ، يطلب حق التفتيش على المفاعل النووي المصري ، وحق التفتيش على مصالح الطائرات والصوراريخ المصرية .. وكان الطلب غريباً ..

وكان الجو الذي صاحبه أشد غرابة .

وحين رفض جمال عبد الناصر كان الشد والجذب في العلاقات المصرية الأمريكية قد وصل إلى قرب درجة القطيعة .

□ □ □

ثم كان ، جونسون ، أيضاً بطل الموقعة التاسعة ، فقد أحسن أن جمال عبد الناصر يتحدى النفوذ الأمريكي في المنطقة ، ويرفض كل الطلبات الأمريكية ، ويعين الجماهير العربية ضد السياسات الأمريكية . ولم يكن جمال عبد الناصر يفعل ذلك تكاثة في أمريكا ، ولكنه كان يريد تثبيت وتدعم قاعدة المقاومة العربية ، بأن تكون الشعوب العربية كلها واعية بما يجري ، موجودة عن طريق هذا الوعي كطرف في الصراع .

وقرر جونسون وقف مبيعات القمح لمصر ، وفقاً لقانون بـ . لـ . ٤٨٠ .

وجاء هذا القرار في الوقت الذي يستطيع ضرره فيه أن يكون محسوساً .

جاء في وقت بدأت تظهر فيه الآثار التضخمية لتنفيذ خطة السنوات الخمس الأولى للتنمية الشاملة .

وجاء في وقت تصاعدت فيه نفقات العمليات العسكرية في اليمن .

وضرب جونسون ضربته ، وكان ذلك في نهاية سنة ١٩٦٦ .

وفي منتصف سنة ١٩٦٧ ، يونيو بالتحديد ، جاءت الموقعة العاشرة ، وكانت أكثر المحاولات شراسة وأشدتها عنفاً .

ولسوف تمر سنوات طويلة قبل أن يظهر الدور الذي قامت به الولايات المتحدة في معركة يونيو ١٩٦٧ ، ولكن الثابت من الآن أن مساعدة الولايات المتحدة لإسرائيل سارت في طريقين متوازيين في تلك الظروف :

... طريق رسمي على - سياسي بالدرجة الأولى - وقد تمثل في الوعود الأمريكي الذي اتخذ في مجلس الأمن القومي الأمريكي بأن تضمن الولايات المتحدة لإسرائيل أمرين :

● الأول : تفوق في السلاح على كل الجيوش العربية .

● والثاني : ضمان أنه في حالة قيام عمليات فإن الولايات المتحدة سوف تتدخل عسكرياً إذا كان هناك ما يوحى بوجود انتصار مصرى .

فيما كان هناك انتصار إسرائيلي فإن الولايات المتحدة تضمن لإسرائيل أن لا يصدر قرار من الأمم المتحدة بفرض عليها الإنسحاب من أراضٍ تكون قد احتلتها ، ثم إن الولايات المتحدة تضمن أيضاً أن لا يكون هناك ضغط يمارس دولياً على إسرائيل ما لم يقبل العرب بعقد الصلح معها أو إقامة السلام .

... وأما الطريق الثاني الذي مشت عليه المساعدة الأمريكية لإسرائيل ، فقد كان طريقاً سرياً - وعسكرياً بالدرجة الأولى - قامت به وتولت مسؤوليته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، التي تكفلت بتقديم المعلومات عن أوضاع القوات المصرية ، والتي اشتركت أسطول طائراتها في نقل الأسلحة والذخائر ، والتي تولت تجعيد منظومتين للحرب مع إسرائيل ، خصوصاً من جنوب أفريقيا ورواندا .

وبعد هذه الموقعة ، كان الغضب جامحاً في العالم العربي ، وقطع جمال عبد الناصر علاقات مصر مع الولايات المتحدة ، وتبعته في ذلك دول عربية عديدة ، وبدأ نزوح الرعايا الأمريكيين من الشرق الأوسط ، بينما جونسون في ثورة عارمة على مشهد هذا ، الخروج ، الذي اعتبره مهيناً لأمريكا ، وكان ذلك أبسط نوع من أنواع الاحتجاج على الإشتراك في المؤامرة الكبرى .
برغم ذلك كله ، لم يدع جمال عبد الناصر للغضب الشخصي سبيلاً إلى قراراته .

كان يدرك أن بين الأمة العربية وبين الولايات المتحدة تناقضاً أساسياً ، ولكن الحذر في إدارة هذا التناقض واجب .

وقدر جمال عبد الناصر أنه لاأمل في فتح باب بينما « جونسون » في البيت الأبيض ، وهكذا لم تكد مدة رئاسته تنتهي ويقوز « ريتشارد نيكسون » بالرئاسة بعده ، حتى انتهت جمال عبد الناصر الفرصة فبعث إلى « نيكسون » برسالة تهانة .

وردَ « نيكسون » بإرسال بعثة تقصى حقائق في أزمة الشرق الأوسط ، برأسها ، وليم سكرانتون ، الذي عين أخيراً مندوباً دائماً للولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة ، وتعتبر بعثة سكرانتون ، وسقطت على الأرض لمجرد أنه أدى بتصريح بعد عودته من مهمته في الشرق الأوسط إلى واشنطن ، قال فيه ، إن الولايات المتحدة لا بد لها أن تتبع سياسة متوازنة في الصراع العربي الإسرائيلي .

ولم يتأس جمال عبد الناصر ، وإنما انتهز فرصة أخرى . . . هي فرصة وفاة ، الجنرال أيزنهاور ، فبعث بالدكتور محمود فوزي على رأس وفد للعزاء في « واشنطن » ، وكله باستكشاف آفاق التفكير الأمريكي في الأزمة .

وحتى بعد أن قامت طائرات الفانتوم بغاراتها على عمق مصر ، وضربت مصنع أبو زعبل ومدرسة بحر البقر ، قبل جمال عبد الناصر باستقبال « جوزيف سيسكو » ، مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط وقضى ساعتين يتحدث معه .

ثم وقف في عبد أول مايو سنة ١٩٧٠ يوجه نداءً إلى الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ، يخُرُّجه بين أحد أمرتين : أن يطلب إلى إسرائيل الانسحاب فوراً من الأراضي المحتلة ، أو أن يوقف عنها شحنات السلاح ، لأن استمرار احتلالها للأراضي العربية مع استمرار تزويدها بالسلاح الأمريكي معناه أن الولايات المتحدة شريكة في تثبيت هذا الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية .

وجاء الرد على شكل « مبادرة روجرز » ، وقبلها جمال عبد الناصر ليعطي للرئيس الأمريكي فرصة ، ولكن يعطي نفسه في ذات الوقت فرصة لامتناع ببناء حائط الصواريخ على جبهة قناة السويس .

في هذا كله كان جمال عبد الناصر يدرك مشكلتين :

● مشكلة التناقض بين العرب والولايات المتحدة ، وهو تناقض له أسبابه العديدة والمتنوعة .

● وفي نفس الوقت ، مشكلة اختيار الأسلوب الملائم لإدارة هذا التناقض في ظل أوضاع القوة الدولية الراهنة .

□ □ □

ومع ذلك جاءت الموقعة الحادية عشرة . والأخيرة حتى الآن - بين العرب وبين الولايات المتحدة ، ولعلها كانت بعد سنة ١٩٦٧ أعنف المواقف .

في الوقت الذي استطاعت فيه الجيوش العربية على الجبهات العربية ، وفي مقدمتها الجيشان المصري والسورى ، توجيه ضربة مفاجئة لإسرائيل فى أكتوبر ١٩٧٣ ، سارعت الولايات المتحدة

إلى نجدة إسرائيل ، حتى وجد الرئيس أنور السادات نفسه ، وعلى حد قوله ، « يحارب الولايات المتحدة » .

كانت الولايات المتحدة هي التي أعطت لإسرائيل ، وسط المعركة ، سلاحاً عبرت به قناة السويس من الشرق إلى الغرب ، رداً على عبور الجيش المصري من الغرب إلى الشرق ! ثم أتبعت الولايات المتحدة هذا العمل المكشوف بأعمال أخرى مستترة ، استهدفت جميعاً إجهاض الموقف السياسي العربي ، وتفریقه من كل قواه الضاغطة ، إلى جانب تمزيق تماسك الجبهات العربية المحبيطة بإسرائيل * .

ألم يحدث هذا ؟

حدث . . .

وكان جمال عبد الناصر في مثواه الأخير منذ أكثر من ثلاثة سنوات .
ولم يكن هناك يستفز الولايات المتحدة ، أو يبادرها بداء ، أو يطالعها بوجه عابس
أو مبتسم !!

* تكفي نظرة واحدة الآن على مجلد العلاقات الأمريكية الإسرائيلية لمعرفة المدى الذي وصلت اليه هذه العلاقات . فقد تحقق تطابق كامل بين السياسيين . في عصر قيل فيه كل العرب تقريباً بفكرة السلام مع إسرائيل . وجمال عبد الناصر في مثواه الأخير منذ سبعة عشر عاماً

الحمد لله رب العالمين
الحمد لله رب العالمين
الحمد لله رب العالمين

عبد الناصر وفتح
الأبواب للاتحاد السوفييتي

تظل هناك نقطة في ادعاءاتهم على جمال عبد الناصر :

ـ ، لقد فتح أبواب الشرق الأوسط أمام الإتحاد السوفييتي ، وأدخله إلى المنطقة قوة تؤثر في مقدراتها ؟ .

ونناقش هذه النقطة بموضوعية ، ولعل واحد من الذين يستطيعون مناقشتها دون أي حساسية ، فلقد تصدّيت كثيراً لنقد العيادة السوفييética في المنطقة ، وتعريضت مراراً لحملات مضادة من جانب أجهزة الإعلام السوفييética ، بل وصل الأمر إلى ما هو أكبر من ذلك :

وصل الأمر إلى حد أن « ليونيد بريجنيف » ، طالب بإيعادى عن الصحافة المصرية وتأثيرها السياسي على الرأى العام المصرى . وقد نقل طلب « بريجنيف » إلى القاهرة مع الوفد المصرى الذى حضر المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتي ، والتلى بسكرتيره العام « بريجنيف » ، قبل عودة هذا الوفد من موسكو إلى القاهرة . بل إن الرئيس « نيكولاى بادجورنى » ، أعاد هذا الطلب على الرئيس أنور السادات فى آخر زيارة له للقاهرة ، وكان الرئيس السادات بنفسه هو الذى أخبرنى بما طلبه منه « بادجورنى » ، بل وفوضنى الرئيس السادات أن أناقش هذا الموضوع مع « يوريس بانماريوف » عضو المكتب السياسي السوفييتي ، وكان يزور القاهرة فى صيف سنة ١٩٧١ ، فى أعقاب زيارته « بادجورنى » لها !

أعود إلى النقطة الأصلية في هذا الحديث ؟

ـ هل صحيح أن جمال عبد الناصر فتح أبواب الشرق الأوسط أمام الإتحاد السوفييتي ، وأدخله إلى المنطقة قوة تؤثر في مقدراتها ؟ ..

ونحاول الإجابة على هذا السؤال ، وأمثلة أخرى تتفرع منه .

ـ والإجابة على السؤال نفسه لا تحتاج إلى جهد كبير ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - لقد كان الغرب هو الذي أدخل الإتحاد السوفييتي إلى المنطقة أول مرة في هذا القرن ، وليس جمال عبد الناصر .

حدث ذلك حين اتفقت بريطانيا مع الإتحاد السوفييتي على اقسام احتلال إيران سنة ١٩٤١ . اعتراضاً من بريطانيا بأن الإتحاد السوفييتي ، حليف المعركة الكبرى ضد هتلر ، له مصلحة أمن لا يمكن إغفالها في منطقة الشرق الأوسط ، وفي اتجاه الخليج العربي والمحيط الهندي بشكل خاص .

ثم حدث ذلك حين جلس روزفلت مع ستالين في « مؤتمر يالتا » سنة ١٩٤٥ يقسمان العالم ومناطق النفوذ فيه ، كأن الكره الأرضية أمامهما كعكة تحولها سكين الكبار إلى شرائح لكل منهما فيها نصيب يأخذه ويقر له الآخر به .

٢ - في مطلق الأحوال ، فإن الإتحاد السوفييتي بعد الحرب العالمية الكبرى الثانية لم يكن في حاجة إلى تشرشل أو إلى روزفلت ليعطيه دوراً عالمياً . فقد كان دوره موجوداً على نحو أو آخر في كل القارات وعلى كل المحيطات . إن الإتحاد السوفييتي خرج من الحرب العالمية الثانية وهو واحدة من القوتين الأعظم ، وكانت التطورات سنة بعد سنة منذ تلك الحرب تؤكد هذه الحقيقة وتجعل من الإثنين ، الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي والتعاون بينهما والتلاحم بينهما ، أساساً للنظام الدولي المعاصر .

ولذن ، فإن الإتحاد السوفييتي ، الذي لم يكن في حاجة إلى « تشرشل » و « روزفلت » ، لم يكن أيضاً في حاجة إلى جمال عبد الناصر يفتح له أبواب الشرق الأوسط ويدخله إلى المنطقة . بل لعل الإتحاد السوفييتي كان أقرب إلى التواجد في المنطقة من الولايات المتحدة .

إن الولايات المتحدة كانت موجودة فيها بحكم المصالح وراء البحار البعيدة . وأما الإتحاد السوفييتي فقد كان موجوداً فيها بحكم الجوار وراء الحدود القريبة والمباشرة في بعض الأحيان .

٣ . وربما كان دور جمال عبد الناصر إزاء الإتحاد السوفييتي . والحال كذلك . هو أنه كان القائل للإتحاد السوفييتي :

« لا تتعاملوا معنا من خلال أوصياء علينا فليس علينا أوصياء ، ولا من خلال اقسام مناطق النفوذ فلسنا ضمن مناطق النفوذ لأحد .. إذا أردتم أن تتعاملوا معنا فنحن على استعداد كطرف مستقل ومن الباب الأمامي » .

وقد كان !

□ □ □

سؤال فرعى يتداعى بعد الإجابة على السؤال الرئيسي :

ـ ماذا استفدنا ؟

والرد :

ـ ما أكثر ما استفدناه ، ويمكن تلخيصه كله في أننا أصبحنا أطرافاً في حركة الصراع العالمى ، ولم نعد ، كما كنا من قبل ، كمية مهملة على حافة هذا الصراع وحركته العامة الشاملة :

١ - استطعنا أن نخرج من التبعية الكاملة لأحد المعسكرين الدوليين .

٢ - دخلنا تفاعلات الحرب الباردة بين المعسكرين ، واستفدنا من موازينها لصالح قضيانا ، وأنشأنا مع غيرنا تياراً مستقلاً . هو تيار عدم الإنحياز . أثّرنا به على قضية السلام وال الحرب والتنمية في عالم النصف الثاني من القرن العشرين .

٣ - عندما تحولت تفاعلات الحرب الباردة إلى تفاعلات وفاق بين الكتلتين استفدنا من أحکام الوفاق . وكان في استطاعتنا أن نستفيد أكثر . لكن تكون هناك تسوية عادلة لمشاكلنا ، إذا كان هذا العالم حقيقة ي يريد السلام ويريد الوفاق مدخلاً إليه .

هذا في مجال الحركة العالمية بشكل عام .

□ □ □

فإذا انتقلنا من التعليم إلى التخصص ، ورثّينا أنظارنا على الشرق الأوسط ، لوجدنا أن ما حدث في مجال الحركة العالمية بشكل عام انعكس على المنطقة عملياً كما يلى :

١ - إن جمال عبد الناصر استعان بدور السوفيت في مواجهة الولايات المتحدة على مهمة تصفيّة الاستعمار التقليدي في المنطقة ، استعان به سياسياً واستعان به عسكرياً ، ولو بغير السلاح .

استعان به سياسياً في مواجهته العلية مع الاستعمار في حرب السويس منذ التأمين في يونيو ١٩٥٦ إلى بداية الغزو البريطاني الفرنسي الإسرائيلي في آخر أكتوبر من نفس السنة . وحين بدأ الغزو ، وقاوم جمال عبد الناصر وحده حتى تحرك الموازين الدولية ، كان الإنذار السوفياتي هو الذي حرّك الضغط الأمريكي على حلفاء أمريكا في الغرب ، فاضطروا إلى التراجع دون أن يستعمل الاتحاد السوفياتي صواريخته .

ومثل هذا حدث تقريباً في أواخر أكتوبر من سنة ١٩٧٣ .

٢ - إن جمال عبد الناصر استعان بالاتحاد السوفياتي على كسر احتكار العلاج المفروض

على المنطقة ، وكان السلاح السوفييتي هو السلاح الوحيد الذي وجده العرب في أيديهم لمقاومة التوسيع الإسرائيلي ، ومحاولة رد هذا التوسيع بالقوة إلى مرحلة التقلص والإنكماش . كان السلاح السوفييتي هو السلاح الوحيد الذي وجدها في أيدينا سنة ١٩٥٦ ، وهو السلاح الوحيد الذي وجدها في أيدينا سنة ١٩٦٧ ، والسلاح الوحيد الذي وجدها في أيدينا سنة ١٩٦٩ - حرب الاستنزاف . والسلاح الوحيد الذي وجدها في أيدينا سنة ١٩٧٣ .

وإذا تساءل متسائل : ماذا فعلنا بهذه السلاح سنة ١٩٦٧ ؟

فإن الرد عليه هو : إن الذنب لم يكن ذنب السلاح ، وإنما كان ذنب قصورنا في توجيهه . والدليل على ذلك أن هذا السلاح الذي كان في أيدينا هو نفسه السلاح الذي كان في يد الثورة الفيتنامية ، وصنعت به المعجزات أمام القوة الأمريكية بجلاة قدرها !

٣ - إن السلاح السوفييتي - حتى هذه اللحظة - هو السلاح الوحيد في جيوش مصر وسوريا والعراق والجزائر واليمن الديمقراطي والسودان والصومال ، ثم هو كل السلاح الذي تمسك به المقاومة الفلسطينية ، وأخيراً فهو اليوم جزء هام من سلاح ليبيا والكويت ، وغيرهما من الدول العربية .

٤ - بل إن محاولات الغرب لبيع السلاح إلى المنطقة - وبينها مصر الآن - تتبع أساساً من منطق : تقليل اعتماد مشتريه على الإتحاد السوفييتي ، وهذا فإنه حتى حصولنا على سلاح من الغرب لم يكن ليحدث لولا علم الغرب أنه إذا لم يبيع سلاحه للعرب فإن العرب لن يعوزهم الحصول على السلاح من غيره - من الإتحاد السوفييتي

٥ - وهذا نستطيع القول أن دخول السلاح السوفييتي إلى المنطقة غير الموازين في الصراع العربي - الإسرائيلي .

وفوق ذلك فقد أعطى لهذه المنطقة الغنية ، والقادحة الغنى ، قوة مسلحة تذود بها عن كنوزها ، فليس هناك ما هو أكثر خواية للمطatum من كنوز مباح لا يدافع عنه سلاح !

٦ - ولم تكن المساعدة السوفييتية في مواجهة الأزمات وحدها ، سواء بإمدادات السلاح أو بالموافقات السياسية ، وإنما تحمل الأرض العربية على ظهرها شواهد لا يمكن إنكارها من رموز التعاون العربي السوفييتي : سد أسوان العالى - سد القرارات - مجمعات الحديد والصلب - ترسانات بناء السفن - مصانع بالمئات وبالألاف - مفاعلات ذرية - محطات كهرباء ، إلى آخره .

٧ - ولم تكن دعائم القوة المسلحة ، ولا كانت دعائم القوة الاقتصادية ، التي حصلنا عليها من الإتحاد السوفييتي ، بثمن باهظ يُثقل علينا عليه . . .

كان السلاح ، وما يزال ، يباع لنا بسعر معقول ، وكنا ، وما زلنا ، نحصل عليه بخصم على هذا السعر نسبة ٢٥ في المائة ، وكانت الأقساط ، وما زالت ، على سنوات طويلة ، بين اثنى عشرة سنة وعشرين سنة ، وكانت الفوائد لا تزيد على ٤,٥ في المائة .

· وبصفة عامة ، وهذا تقدير الخبراء ، فإن نسبة ثمن أي سلاح سوفييتي إلى مثيل غربي له هي بنسبة ١ للسلاح السوفييتي و ٣ للسلاح الغربي ، فإذا أضيفت فوارق الفوائد (٢٥ في المائة في السلاح السوفييتي وما بين ١٥ و ١٨ في المائة للسلاح الغربي) لأصبحت هذه الفوارق فادحة .

ونفس الوضع تقريرياً في اتفاقيات السلاح ينطبق على اتفاقيات إنشاء السدود وبناء المصانع وغيرها .

وسؤال فرعى آخر :

· هل قدم الإتحاد السوفييتي هذا كله من أجل عيون جمال عبد الناصر وإرضاع لخاطره ؟

والرد :

· إن الأمر كان أكبر من ذلك جداً ، ولو حاولنا أن ندقق لوجدنا ما يلى :

١ - إن الإتحاد السوفييتي بدأ علاقاته مع جمال عبد الناصر بالشك فيه على أساس التحليل الماركسي التقليدي لنور الجيوش في المجتمعات ، والجيوش في المجتمعات قبل ثورة عبد الناصر كانت أداة لحفظ الأمر الواقع وحمايته وليس أداة لتغييره وتطويره ، وهكذا كان حكم الإتحاد السوفييتي ابتداء يقضى بأنه : ديمكتاتور فاشيستي لا أكثر ولا أقل ..

ثم فوجيء الإتحاد السوفييتي بظاهرة جمال عبد الناصر التاريخية : زعامة وطنية ، قادرة على أن تمثل وتبرز إرادة قومية مستقلة وتقدمية ، وسجلها في معايير الاستعمار قاطع واتجاهها إلى التنمية الشاملة واضح ، ثم إن هذا كله يحدث في منطقة حيوية بالغة الأهمية كالشرق الأوسط ، خصوصاً بموقعه القريب وراء ظهر الإتحاد السوفييتي .

٢ - إن الإتحاد السوفييتي وجد جمال عبد الناصر يتعدى الحاجز الوطني لمصر ، ويختلط النطاق القومي لأمته العربية ثم يذهب بعيداً وعميقاً . بعد السويس بالذات . لكن يطلق صيحة الحرية ، أو هورو ، في أفريقيا كلها ، فإذا نكروما في غانا ، وسيكتورى في غينيا ، وموديبو كيتا في مالي ، وجومو كينياتا في كينيا ، ونيريرى في تنزانيا ، يبرزون على الساحة الإفريقية المظلمة في وسط هالة التحرر المضيئة التي تشع من مصر عبد الناصر .

ويعبّر أستاذ أفريقي رصين كالأستاذ مزروى ، عن الحقيقة في عدد أخير من مجلة الشؤون الخارجية قائلاً :

· إذا كان يقال إن العرب شاركوا في استعباد أفريقيا بتجارة الرقيق في قرون مضت ، فإن العرب قد كفروا عن الخطيئة في هذا القرن ، حين جاءوا وراء جمال عبد الناصر لتحرير أفريقيا .

ثم تصل أبعاد الطاقة التحررية العظمى التى فجرها جمال عبد الناصر إلى أمريكا اللاتينية ، ويسمع السوفيت من رجل مثل فيدل كامبسو يقول لهم . كما قال علناً :

- لقد كان جمال عبد الناصر إلهاماً لثورتنا . إذا كان فى استطاعته أن يتصدى لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى السويس . أفلأ يكون فى استطاعتنا تحن أن نتصدى لحكم الديكتاتور باتيستا وأن نعلن الثورة المسلحة ونتنصر ؟ ..

٣ - ول يكن أن الإتحاد السوفيتى وجد أن التيار التحررى الذى قاده جمال عبد الناصر يتلافى مع أهدافه .

فإلاستعمار الذى يتصدى له عبد الناصر هو نفسه القوة العظمى الثانية التى يتنافس معها الإتحاد السوفيتى .

ماذا فى ذلك ؟

وأليس حقاً أن السياسة الدولية هى حركة بالاتفاق والإختلاف متغيرة لحماية مصالح دائمة لشعب أو لامة أو لكتلة من الشعوب والأمم ؟ ..

لقد تلاقت مصالحنا مع مصالح الإتحاد السوفيتى .

واستفادت الأمة العربية ، واستفاد الإتحاد السوفيتى بطبيعة الحال .

وأليس هذا هو منطق التعامل الدولى ذاته ؟ أو أنتا تتصور أن تأخذ ولا يأخذ غيرنا ؟ !

□ □ □

سؤال يندفعى من هنا :

... ولكن ماذا أعطى . . . هذه هي المسألة ؟

ويندفع بعضهم - افتراء علم الله وتجنياً - ليقول :

لقد أعطى استقلال مصر بهذا التواجد العسكرى السوفيتى الذى تركه فى مصر عندما رحل فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ؟

واستأنن فى وصف هذا المسؤال بالكلمة المشهورة عن الرئيس السادس وهى كلمة : عيب ١ ثم أشرح الأمباب :

١ - إن جمال عبد الناصر تعامل مع الإتحاد السوفيتى من موقف النذ للنذ ، فقد كان يعرف أنه أمامهم يمثل أمة عربية بأسرها ، لها ارادتها المستقلة ، ولها مصالحها القومية فى منطقة من أهم مناطق الدنيا ، وأقرَّ الإتحاد السوفيتى بهذه الحقيقة ، وإقرار زعماه بها مسجل فى كل خطاب القوه أمامه . . . بل إن عبد الناصر كان أمامهم أكبر من مجرد زعيم عربى ، فقد

كان رمزاً عالمياً للثورة الوطنية ، ولعدم الانحياز ، ولأمانى العالم الثالث كله وتطبعاته ونضاله .

٢ - حينما أخطأ الإتحاد السوفياتي ، بعد ثورة العراق في سنة ١٩٥٨ ، في فهم الحقيقة القومية ، كان جمال عبد الناصر هو الذى تصدى لمعركة مع الإتحاد السوفياتي لم يسبق لها مثيل في العالم الثالث كله ، ولا لحقها مثيل بعد ذلك .

وفي بداية سنة ١٩٥٩ كانت المعركة بين جمال عبد الناصر و « نيكيتا خروشوف » على أشدّها ، ووقف « خروشوف » في المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي يهاجم عبد الناصر ، ورد عبد الناصر من شرفة قصر الضيافة في دمشق .

ولم يكن جمال عبد الناصر يريد أن يهزم الإتحاد السوفياتي أو يخرجه من الشرق الأوسط ، ولكنه كان يريد أن يفرض عليه الحقيقة القومية فرضاً .

واستطاع عبد الناصر محاصرة الإتحاد السوفياتي في الموصل في شمال العراق ، ولم يترك له حليفاً أو صديقاً في المنطقة غير الحزب الشيوعي العراقي - كما كان وقتها . واضطر الإتحاد السوفياتي أن يرى الحقيقة ويسلم بها ، وهي أن الأمة كلها وراء الرجل الذي استطاع التغيير عن حقيقتها القومية . وبدأ يتراجع .

وكانت ذروة التراجع مجىء « نيكيتا خروشوف » ، بنفسه إلى مصر سنة ١٩٦٤ ليحضر احتفال إتمام المرحلة الأولى من بناء السد العالي ، وليقدم لجمال عبد الناصر في أسوان وسام « بطل الإتحاد السوفياتي » .

٣ - بعد سنة ١٩٦٧ كانت سياسة جمال عبد الناصر باللغة الدقة إزاء الإتحاد السوفياتي .

● طلب خبراء سوفييت ومزيداً من الخبراء :

... لاعتقاده بأن الجيش المصرى يحتاج إلى تدريب مركز ومكثف ليتحرك بسرعة عبر مراحل استراتيجية الحرب ، وهى : الصمود والردع والتحرير .

● ترك جمال عبد الناصر للإتحاد السوفياتي ، بعد صدور قرار مجلس الأمن ، أن يتولى اتصالات تنفيذه مع الولايات المتحدة .

... ولم يكن بهذا يتخلى عن مسؤوليته القومية ، ولكنه كان يريد أن يعرف الإتحاد السوفياتي ، بالخبرة العملية ، أنه لاأمل في حل دبلوماسي ، وأن الحل لن يجيء إلا عن طريق استخدام القوة .

● أعطى جمال عبد الناصر تسهيلات للأسطول السوفياتي في ميناءى بور سعيد والإسكندرية .

... ولم يكن بذلك يعطى قواعد للاتحاد السوفييتي ، وإنما أراد تشجيعه على زيادة أسطوله في البحر الأبيض لتكون القوة النامية لهذا الأسطول في البحر الأبيض رادعاً للأسطول الأمريكي الذي كان يعتبر احتياطياً استراتيجياً لإسرائيل .

٤ - في الزيارة المصرية التي قام بها جمال عبد الناصر لموسكو في بداية سنة ١٩٧٠ ، وهي الزيارة التي زاد بعدها تواجد السوفييت في مصر بحكم قبولهم لمسؤوليات الدفاع عن العمق . كان جمال عبد الناصر يعرف ما يريد ، وقد حصل عليه :

كان جمال عبد الناصر يريد أن يحمي قوات الجبهة ببطاريات الصواريخ المصرية ، ولكن تركيزها جميعاً إلى الجبهة يترك العمق مكشوفاً أمام الغارات الإسرائيلية التي بدأت تستبيح سماوات مصر بطائرات الفانتوم . وكان اشتراك السوفييت في الدفاع عن العمق - حتى يتم تدريب أطقم مصرية كافية على الصواريخ الجديدة من طراز « سام ٦ » ، حلولاً وحيداً للمشكلة ، وبغيره لم يكن هناك مفر من بعثرة طاقة مصر الصاروخية بين الدفاع عن الجبهة والدفاع عن العمق ، والتأخر في استيعاب صواريخ « سام ٦ » ، المضادة للطيران المنخفض .
وكان « بريجنيف » يعارض بشدة لأن اشتراك السوفييت في هذه العملية يؤثر على الموازين الدولية ، ويهدد التوافق .

وكان ذلك مطلبًا من مطالب جمال عبد الناصر التي لم يصرح بها لمقاصده ، فقد كان يريد أن يؤثر على الموازين الدولية ، كما كان يريد تعطيل حركة الوفاق حتى تتحرك أزمة الشرق الأوسط .

وسرت الحوادث في الطريق الذي رسمه جمال عبد الناصر :

● توقفت غارات العمق عندما أحص الإسرائيليون يوم الغارة على الفيوم .
١٨ إبريل - بوجود السوفييت .

● تحركت الولايات المتحدة وبعثت جوزيف سيسكو إلى القاهرة لاستطلاع رأى جمال عبد الناصر .

● توترت العلاقات بين القوتين العظميين .

● تقدمت الولايات المتحدة بمبادرة روجرز التي أشارت لأول مرة إلى الإنسحاب من الأرض العربية ، على أساس قرار مجلس الأمن .

● استطاع جمال عبد الناصر إتمام بناء حائط الصواريخ الذي كان عاملًا حاسماً في نجاح عبور قناة السويس بعد ذلك في أكتوبر ١٩٧٣ .

● أمكن إعداد بطاريات مصرية مدربة على صواريخ « سام ٦ » .

تبقى نقطة هامة ، ربما لا يعرفها كثيرون :

وهذه النقطة هي أن «بريجنيف» رجا جمال عبد الناصر أن يتم سحب الخبراء السوفيتين المسؤولين عن الدفاع عن العمق - قبل بدء المعركة - لأن وجودهم وقتها قد يثير تعقيبات لا حدود لها .

وافق جمال عبد الناصر .

وهكذا فإن سحب هؤلاء الخبراء قبل المعركة كان أمراً مثلكاً عليه في المجتمع موسكو في أوائل سنة ١٩٧٠ .

أقول ذلك وقد كنت بنفسي واحداً من شهود هذا الاجتماع ، وكنت رابع أربعة من المصريين حضروا الاجتماع النهائي لهذه المحادثات ، وقد حضرها كل أعضاء المكتب السياسي السوفيتي وكل مارشالات الاتحاد السوفيتي ، وكان المصريون الأربعة هم : جمال عبد الناصر ، والفريق محمد فوزي ، والدكتور مراد غالب ، وأنا .

ـ . كان جمال عبد الناصر طول الوقت ، وفي تلك الفترة الحرجة ، شديد الحساسية لأى تجاوز يمكن أن يمس من قريب أو بعيد ، في الشكل أو المضمون ، باستقلال مصر وحرية إرادتها :

ـ ● حين جاء الرئيس «نيكولاى بادجورنى» لمقابلة عبد الناصر في شهر يونيو ١٩٦٧ ، والنكمة بعد تنزف جراحها ، أحسن جمال عبد الناصر أن «بادجورنى» يطلب إنشاء مركز مستقل للأسطول السوفيتي في الإسكندرية ، ووجه جمال عبد الناصر كلامه إلى «بادجورنى» على الناحية المقابلة له من مائدة المحادثات ، وقال له بهدوء وحزم :

ـ . تسهيلات للأسطول السوفيتي ، نعم . . . ولكن مركزاً مستقلاً ، لا . . . معناها أننى أقبل قاعدة سوفيتية في الإسكندرية ، حتى ولو كان هذا المركز مبنياً واحداً من حجرة واحدة ! .

ـ ● وفي مرة أخرى في زيارة يوليو سنة ١٩٧٠ ، دارت مناقشة أمامى بين بريجنيف وعبد الناصر . . .

كان عبد الناصر يطلب خبراء سوفيت ، وكان بريجنيف متربداً ، ثم قال بريجنيف ضمن ما قاله من حجج :

ـ إننى أخشى أن يستغل وجود عدد من الخبراء السوفيت فى مصر وأن يقول بعضهم أن وجودهم نوع من الضغط أو التدخل فى شؤون مصر .

ـ وقال جمال عبد الناصر ببساطة :

ـ إننى أنا الذى أطلبهم بنفسى . . . وإذا أحسست فى يوم من الأيام أن وجودهم يشكل نوعاً من الضغط ، أو احتمالاً بتدخل منكم فى شؤوننا الداخلية ، فلن أتورع عن أن أطلب إلى

الفريق فوزى أن يجمعهم كلهم على باخرة واحدة فى الإسكندرية ويشلحهم اليك بطريق البحر إلى أوديسا .

ولم أنس حتى الآن تعبير الدهشة المرتسم على وجه بريجنيف .

• ثم مسألة أخرى لا يصح أن تغيب عن باى أحد ، تلك هي أن جمال عبد الناصر رفض باستمرار عقد معاهدة مع الإتحاد السوفيتى .
وكان قوله « لما ذكرنى يوماً بالحرف :

ـ « إننى على استعداد لعقد معاهدة معكم بشرط واحد هو أن تحاربوا معنا جنباً إلى جنب . . . إذا فعلتم ذلك أوقع معاهدة ، وإذا لم تفعلوه . ولم تكونوا على استعداد له . فما بيئنا الآن يكفى » .

ولقد كان الرئيس المسادات هو الذى عقد معاهدة مع الإتحاد السوفيتى بعد ذلك ، وقد عقدها فى ظروف صعبة ، فقد كان يشعر أنه مطالب بطمأنة الإتحاد السوفيتى بعد حوادث ١٥ مايو ١٩٧١ ، وتلك على أى حال قصة أخرى .

...
...

استأذن هنا أن أسمح لنفسي بأن أختلف مع الذين يرون أن قرار الرئيس أنور المسادات بإخراج الخبراء السوفيت من مصر كان قراراً استعيدت به السيادة المصرية على الأرض المصرية .

وأقرب الأشياء إلى الحقيقة أن هذا القرار كان ممارسة لسيادة موجودة ، ولم يكن استرداداً لسيادة مفقودة !

لقد كفاه أن يخطر السفير السوفيتى بما يريد يوم ٨ يوليو ١٩٧٢ ، وأن يطلب تنفيذه فى ظرف عشرة أيام ، ولم يناقشه السفير السوفيتى ولا ناقشه أحد فى موسكو .

وإنما قام كبير الخبراء السوفيت بخطار وزير الحرب وقتها بأن قرار الرئيس مستجاب ومطاع ، ثم وعده بتقديم تقرير يومى عن عملية ترحيلهم ، وبدلًا من أن تتم فى عشرة أيام ، تمت فعلاً فى ثمانية .

ولذن فهو لم تكن معركة سيادة أو معركة استقلال .
كان قرار ممارسة سيادة ، وكان قرار ممارسة استقلال .

ثم لقد أضيف بعد ذلك أن أنور المسادات ليس بحاجة إلى بطولات تختلق أو تتفق ، فالرجل له من سجله ما يكفيه ويغطيه ، وإذا لم يكن له غير قرار العبور لكتفاه وأغناه !

ماذا بقى إذن من الدعاوى ضد جمال عبد الناصر في أمر علاقاته بالسوفيت ؟
لم يبق غير الترهات . .

كان يقال مثلاً :

- هم ملحدون . . . وسلاحهم ملحد !

ولست أعرف إذا كان الإيمان يشع من عيون الأمريكان . . وتور الحق يلمع من سلاحهم ؟ !

لكنى أعرف شيئاً واحداً :

- إن السلاح ، الملحد ، الذى عبرنا به قناة السويس إلى الشرق . . . أفضل ألف مرة من السلاح ، غير الملحد ، الذى عبرت به إسرائيل قناة السويس إلى الغرب !

نهاية المطاف

الحادي
الثاني
عشرين

أصل إلى نهاية المطاف في هذه السلسلة ، وقد طالت عما فدرت لها ، ولكن القضايا مثبتة
بعضها بعضاً ، وتداعت أحاديث من أحاديث !
واللخص في الختام لكي يكون الفصد واضحًا ، والطريق مستقيماً :

□ □ □

١ - إن جمال عبد الناصر كان تجربة هائلة في حياة هذه الأمة العربية ، وفي زماننا
المعاصر كله . ومثل كل تجربة هائلة . خصوصاً إذا كانت بالثورة . فإن التجربة تصبح حافلة ،
ذلك أنها بالثورة تواجه بدایات جديدة ، ثم إنها تعطى للتحديات التي تطرح نفسها عليها إجابات
مختلفة ، وهذا مجال الصواب والخطأ .

وقد أصاب جمال عبد الناصر وأخطأ ، واعتقدى أن الإيجابى في تجربته يرجح المثبتى
بكثير ، ومحصلة أى حساب أمين تعطيه أكثر مما تأخذ منه بفارق كبير لصالحه ، ويكتفى لأى واحد
منا أن يلقى نظرة على خريطة المنطقة السياسية والإجتماعية والإقتصادية وموازين القوى فيها ،
قبل جمال عبد الناصر وبعده ، ليرى الحقيقة ظاهرة وناصعة .

وعندما توزن أخطاء تجربة في مثل حجم تجربة جمال عبد الناصر ، فإن هذه التجربة لا يمكن
أن تقاس إلا بأهدافها هي ، وإلا بظروفها هي ، وإلا بالتحديات التي واجهتها هي ، وإلا بالخيارات
التي كانت مفتوحة أمامها ، وإلا أصبح التقييم تعسفاً ، وانحدر التاريخ إلى مستوى المؤامرة !
ثم إنه لا يستطيع أن يقضى في مثل هذه التجربة ، ولا حتى بالتقدير ، هؤلاء الذين عادوا
التجربة بمعاناتها وحركتها وجماهيرها ، فعادتهم هذه التجربة مبدأ وحركة وجماهير .
إن هؤلاء الأعداء لهم حق الكلام بالطبع ، لا يخلقه أحد في حناجرهم ، ولكن كلامهم يكون

من موقع العداء وليس من موضع القضاء ، ويجب أن يكون هذا واضحًا لكي لا تختلط الصور .

إن المستعمرين الفرنسيين - ذوى الأقدام السوداء كما يسمونهم - لا يمكن أن يكونوا هم السلطة التي تقيم الثورة الجزائرية !

وحكومة ، فيشي ، التي استسلمت للألمان في الحرب العالمية الثانية حاكمت ، الجنرال ديغول ، الذي مثل إرادة الشعب الفرنسي في مقاومة النازى . وحكمت عليه بالخيانة العظمى ، وطلبت رأسه حيًّا أو ميتاً ، ولكن هذا الحكم كان مهزولة على هامش التاريخ ولم يدخل في حسابه ! وبينفس المعيار ، فإن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . وهي الدافع الحقيقي وراء الحملة الضاربة على عبد الناصر اليوم . ليست هي القاضي الذي يبحث قضية الديمقراطية في عصر عبد الناصر . هؤلاء الملوثة أيدوهم بالجريمة الوحشية في شيلي . مثلاً . حيث أُغتيل الرئيس الشرعي سلفادور أليبيدي ، وحيث قتل في الشوارع في يوم واحد ٢٥ ألفاً من المواطنين ، وحيث اعتقل في أسبوع واحد مائتا ألف من الناس وفق تقرير لجنة العدل الدولية . ليسوا قضاة الديمقراطية في تجربة عبد الناصر أو غيره .

لعم . . .

تجربة عبد الناصر ليست فوق النقد ، بالعكس فإن نقدها بالتقدير مطلوب ، لكن جامعة القاهرة مثلاً . مهما كانت أسباب قصورها . لا يمكن أن تحاكم من علب الليل في شارع الهرم !

□ □ □

٢ - إن الحملة الضاربة المعلنة ضد جمال عبد الناصر - بالباطل في معظم ما تدعي به . لن نضره بشيء .

فهو كإنسان بعيد عن هذا كله ، في رحاب الله ، لا يمسه من هذه الدنيا مسوء . وهو كتجربة ملك جماهير واسعة عاشتها معه وأعطته ما لم تعطه لأحد قبله ، وما لم تعطه بعده لأحد . ولم تكن جماهيره عمياً ولا فاقدة لوعيها وهي تسير معه . لقد وجدت في حركته أمانيتها الضائعة ووجدت في كلماته تعبيراً عن رغباتها المضفوطة ، ولم تكن العلاقة بين الإثنين علاقة الأمر والطاعة ، وإنما كانت علاقة حوار حر ، لأن مجاله عقول الناس وقلوبهم ، وحيث لا سلطان لقوة على أعماق البشر إلا ما تشعر به وتلتقط .

وفي سياق هذا الحوار ، فإن هذه الجماهير لم تتحفظ في تأييدها له مرات ، وتحفظت مرات أخرى ، ورضبت عنه أحياناً ، وعاتبته أحياناً أخرى ، وغضبت عليه في بعض العرواق ، وغفرت له في مواقف أخرى .

لقد أبىته بغير تحفظ مثلاً في حرب السويس ، ثم تحفظت بعد الإنفصال .

ورضيت عنه في ندائه للعدل الاجتماعي ، وعاتبته في تجاوز السلطة .

وغضبت عليه سنة ١٩٦٧ ، وغفرت له في حرب الاستنزاف سنة ١٩٦٩ .

وهكذا ، وهكذا ، علاقة حوار حر في مسار تجربة تملكها جماهيرها .

ثم إن جمال عبد الناصر كتاريخ منك أجيال قادمة تتاح لها الحقائق كلها ، وتخلو نظرتها إلى الواقع من انفعالات لحظة يعيّنها ، سواء سادها الفرح أو سادها الحزن .

وكانت تلك على سبيل المثال . ومع اختلاف الظروف . قصة نابليون مع فرنسا .

لقد مات نابليون والهزيمة من حوله ، ومات في المنفى تحت ذل أعدائه .

ومضت سنوات وسنوات .

وعادت إليه فرنسا تضعه في رأس القائمة من زعمائها الخالدين .

وأذكر أديب فرنسا الكبير «أندريه مالرو» وهو يعقد هذه المقارنة بين «نابليون» و«عبد الناصر» ونحن معاً ذات يوم على مائدة غداء في مطعم «لاسبر» بباريس ، وقال لي «مالرو» :

ـ «ليست المسألة هي النصر العسكري أو الهزيمة العسكرية . . . المسألة هي إرادة الأمة وتقديرها للبطل حين تجد نفسها فيه . . . ولقد وجدت أمتكم نفسها في عبد الناصر بمقدار ما وجدت أمتنا نفسها في نابليون مع اختلاف الظروف ، وهذا هو الذي يبقى ، وغيره تكتسه الأيام» .

هكذا فإن الإنسان في عبد الناصر مع ربه .

والتجربة لجماهيرها .

وال التاريخ مسؤولية أجيال قادمة .

ولذن فالحملة الضاربة بعيدة عن أي تأثير حقيقي عليه ، إنساناً أو تجربة أو تاريخاً .

□ □ □

٣ - إن هذه الحملة إذا أثرت فتأثيرها على النظام نفسه بعد عبد الناصر .

إن الثورة لم تكن ثورتين ، والنظام لم يكن نظامين ، وهذا تعبر الرئيس أنور السادات نفسه .

وتأثير على النظام هنا يكون مزدوجاً :

● قسم منه في نظرة النظام إلى نفسه .

● وقسم منه في نظر آخرين إليه : بالذات جماهيره في الداخل والخارج .
وإذا تذكرنا أن الحملة الضاربة الدائرة الآن هي حملة إدانة شاملة وليس عمليّة نقد
موضوعي . إذن فإن التأثير المزدوج يمكن أن يحدث على النحو التالي :

■ إن النظام إذا أثرت فيه إدانة الشاملة يجد نفسه في الموقف الصعب ، موقف
الخجل إزاء ماضيه .

وهو هنا لا يُصحّح ولا يُقْوِم ، ولكنه يغيّر ويقلب رأساً على عقب .
يبعث عن مبادىء غير المبادىء ، وموافق غير الموافق .
وهو بهذا يفقد الثقة بنفسه . . . ويظل يفقد ويُفقَد حتى يُضيّع منه احساسه
بشرعية ذاتها .

■ وإذا أثرت الإدانة الشاملة في نظر الآخرين إلى النظام . وبالذات جماهيره
في الخارج وفي الداخل . فماذا تفيده الثقة بالنفس ، على فرض أنها بقيت لديه .
بقاوته في هذه الحالة مجرد مقدرة على التسلط ، وهذه مرهونة بوقت ، لأنّه ليست
هناك قوّة تستطيع الإحتفاظ إلى فترة طويلة بفروع الشجرة إذا الفصلت عن
جذورها .

والغريب أن بعضهم يحاول أن يحصر الإدانة الشاملة في عصر جمال عبد الناصر ،
ويبرئ منها أنور السادات ، وذلك ظلم لأنّور السادات نفسه قبل ظلمه لجمال عبد الناصر ،
لأنه يسلبه بعضاً من أروع منجزات ثورة ٢٣ يونيو التي هو اليوم وريثها الشرعي ورمزها
الحرى .

□ □ □

٤ - إن الإدانة الشاملة على هذا النحو المجنون بالحقد تأخذ أيضاً من مصر رصيدها كلّه لدى
أمّتها العربية .

فهذه الأمة أمامها خياران لا ثالث لهما :

● إما أن تصدق ما يقال في مصر الآن ، وإنّ فلان حكمها سوف يكون شديد القسوة
على مصر من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٧٠ .

● وإما أن ترفض تصديق ما يقال في مصر الآن . وإنّ فلان حكمها سوف يكون شديد
القسوة على مصر من سنة ١٩٧٠ إلى سنة ١٩٧٦ .

والمؤكد أنّ التيار الغالب في الأمة العربية - بحسب صادق وضمير مستنير - رفض تصديق
ما يقال في مصر الآن ، ومع ذلك فإنه في نفس الوقت . محبة في مصر واعتزازاً . رفض
أن يكون حكمه الفراهن عليها شديد القسوة .

واكفت الأمة حتى الآن بنظرية التساؤل والدهشة والعتاب توجها نحو ما يجرى في مصر ،
تکاد لا تصدق حدوثه .

لم يبقَ زعيم عربى له قيمة إلا وتساءل والدهش وعاتب .

ولم تبقَ مؤسسة عربية لها قيمة إلا وتساءلت والدهشت وعاتبت .

ولم يبقَ شعب من شعوب الأمة العربية إلا وهو الآن يضرب كفاف بکف .

ولقد سمعت من وفود كثيرة رسمية وغير رسمية ، عالية المستوى وعادية المستوى ، تعبيرات قاطعة في دلالتها على ما تشعر به الأمة العربية .

● سمعتها بنفسي من هواري بومدين في الجزائر ، يقول لي :

ـ « ما الذي تفعلونه بجمال عبد الناصر في مصر الآن . . . وأى شيء بقى يحفز أى إنسان عربي ليعطى عمره لأمته . . . لقد اختلفنا واتفقنا معه كثيراً ، ولكننا لا نختلف ولا يختلف معنا أحد في أنه كان أبرز عربي ظهر على الساحة هذا العصر . وإذا كانوا يفعلون به ما نراه اليوم . . . فماذا يفعلون بغيره من لم يعطوا عطاءه ، ولم يكن لهم مثل دوره ، وإن حاولوا بكل ما في وسعهم أن يجاهدوا ويناضلوا ؟ » .

● قالها عبد الرحمن العتيقى وزير المالية الكويتى لوفد مصرى كان في الكويت أخيراً :

ـ « إن آرائى كانت بعيدة عن آراء جمال عبد الناصر .

ولكن دعنا تكون صرحاء . . . إننى سمعت من بعضكم كلاماً عن التجربة الديمقراطية في الكويت . . . وأقول لك بصراحة إن هذه التجربة ما كانت لتحدث لو لا تأثير جمال عبد الناصر ، فاتقوا الله فيه وفينا » .

● بل قالها في أحد القصور واحد من حملة الميدوف لزائر مصرى كان يرافق الرئيس السادات في رحلة عربية أخيرة له :

ـ « في بعض هذه المناطق هنا ظلل العبيد يباعون ويُشترون في الأسواق .

ولقد حصلنا على العتق والحرية عندما بدأ صوت جمال عبد الناصر ينفذ من أسوار

القصور ! .

وامتنطرد حامل السيف يقول :

ـ « أخاف على أنور السادات منهم . . . أى ضمان أن لا يفعلوا به يوماً ، ما يفعلونه بجمال عبد الناصر اليوم ! ؟ . *

ثم ألغت النظر إلى واقعتين حدثتا أخيراً في نطاق جامعة الدول العربية .

تقدمت مصر بمرشح لرئاسة منظمة اليونسكو العربية ، منظمة الثقافة والفنون ، وإسهام مصر

في ميادينها مشهور ، وكان مرشح مصر لرئاسة هذه المنظمة رجلاً من أكفاء رجالها وأقدرهم على الخدمة العامة ، وهو الدكتور محمد حسن الزيات .
وأجرت الانتخابات .

ونال الدكتور الزيات صوتاً واحداً ، هو صوت مصر ، وكانت بقية أصوات الدول العربية كلها لمرشح آخر .

وتكرر نفس المشهد في منظمة التنمية الصناعية العربية ، وكان المرشح لها وزيرًا مصريًا سابقًا للصناعة ، وكان ما حصل عليه - هو الآخر وللمرة الثانية - صوتاً واحداً هو صوت مصر .

كيف حدث أن أعرض الكل عن المرشح المصري في الحالتين ؟
كيف حدث أن مصر لم تتبّع إلى الوضع ، ولم تسحب مرشحها في الحالتين من باب الحرص ، أو حتى من باب المداراة ؟

وأخشى أن التصويت في الحالتين لم يكن من قلة الثقة بكفاءة رجلين قدمتها مصر . . . يقدر ما كان نوعاً من العتاب بصفة عامة لمصر نفسها ، ولا أزعم أن السبب هو حملة الإدانة الشاملة على جمال عبد الناصر ولكنني أتصور أن هذه الحملة - إلى جانب عوامل أخرى - خلفت مناخاً معيناً من حول مصر ، لا أظنه يتاسب مع قيمتها الحقيقة .

□ □ □

٥ - وليس رصيد مصر العربي هو ما يجري تبديده الآن ، وإنما هو رصيد مصر العالمي .

وأسأل على سبيل المثال :

- هل حاول أحد أن يتقصّى أثر حملة الإدانة الشاملة ضد جمال عبد الناصر على أفريقيا ؟
كل حركات التحرير في القارة ، وبغير استثناء ، لم تعرف غيره زعيماً لحركة التحرر الشاملة ضد الاستعمار . حتى المستعمرات البرتغالية التي حصلت على استقلالها أخيراً : موزمبيق وأنجولا ، بدأت نضالها هنا في القاهرة وتحت حمايته .
وفي غير أفريقيا .

ففي أمريكا اللاتينية مثلاً ؟

يلفت النظر حتى الآن أن الأنظمة التي تساندها الولايات المتحدة لا تخشى شيئاً مثلكما تخشى حركات في جيوشها يطلقون عليها اسم ، الناصريون !
ثم آسيا ؟

هل تصدق الهند ما يقال الآن عن جمال عبد الناصر في مصر ؟
هل تصدق الصين ؟
وأوروبا ؟ :

أوروبا في الشرق كلها ترفضه من موسكو إلى بليز ، وبغير استثناء .
وأوروبا في الغرب كلها تتبع ما يقال مجرد متابعة إخبارية .
حتى أمريكا ؟

وكانت مجلة « نايم » الأمريكية هي التي نشرت أخيراً تحقيقاً صحفياً مليئاً بعلامات الإستفهام ،
لتعجب كلها كيف أن جمال عبد الناصر أرفع ما يكون مكانة في العالم العربي كله خارج
مصر . . . وأما في مصر فإن سمعته يجري تعریفها في التراب !

□ □ □

٦ - وبعيداً عن هذا كله ، فإن حملة الإدانة الشاملة بالطريقة التي تجري بها الآن ، يمكن أن
تشير أسئلة فرعية في مصر ، وهي أسئلة فرعية اليوم ولكنها في الغد يمكن أن تجيء بمضاعفات
ليست فرعية .

سوف تبرز تساؤلات عديدة :

● هل هي محاولة لتكبيل إرادة الشعب المصري في « عقدة ثنب » ، ووقعون في روعه
أن ما يصوروه له حدوثه بالأمس جرى باسم الحرية والإشتراكية والوحدة .
ولأن تصرف جماهير الشعب نظرها عن هذه الأهداف .

فإذا كان هذا هو الثمن الذي دفع فيها كما يصوروه - إذن فإنه ثمن فادح إنسانياً ، يستحيل
دفعه لأنى هدف مهما كان .

ولأن على الجماهير أن تسلم إرادتها ، وعليها أن تقبل استغلالها ، وعليها أن تتkenف
وراء أسوار العزلة عن أمتها ؟

هل هذا هو المقصود أو المطلوب ؟

وهل هو معنون سياسياً أو أخلاقياً ؟

● ماذا لو فرغ صبر الناس وكان سؤالهم :

لقد اكتفيينا من حكايات الماضي ، ونحن نريد أن نسأل عن الحاضر والمستقبل ؟
ثم إلى متى يصبح كل ما هو سلبى موروثاً مما قبل ١٥ مايو ١٩٧١ ، وكل ما هو إيجابى
من معجزات ما تحقق بعد ١٥ مايو ؟

ان كل حكم يصبح مسؤولاً عن نفسه بعد فترة سماح معينة يستطيع فيها أن يتغىّب بما ورث عن سابقه ، وفترة السماح هذه عادة لا تطول عن سنة أو سنتين .

أليست مدة التخطيط في العالم كله خمس سنوات في العادة ، تتساءل فيها أى خطوة عملاً حققته أو لم تتحقق حسابة مستقلة ؟

أليست مدد الرؤساء تتراوح ما بين أربع سنوات ، كما هي الحال في أمريكا ، إلى ست سنوات ، كما هي الحال في فرنسا ، ثم يفترض بعد هذه المدة أن كل رئيس أخذ من الوقت ما يكفيه لكي يصنع ملامح عصره ويصبح مسؤولاً عنها ؟

● ما هو الخيار المفتوح أمام المؤمنين استراتيجياً بثورة ٢٣ يونيو ، وفي جمال عبد الناصر ، حتى وإن كانت لهم تحفظاتهم التكتيكية ؟

هل يتحول هؤلاء إلى حركة تحت الأرض ، ليس لها تنظيم يعبر عنها ، وليس لها منابر مفتوحة تنطق باسمها ؟

وهل تصبح الناصرية حركة رفض لنظام يقوم على ثورة عبد الناصر وتجربيته ؟
من يقول بذلك ؟ ومن يرضاه ؟

□ □ □

٧ - ومع ذلك لنفتح الدفاتر .

ولنفتحها بأمانة وشرف ، ولنحقق في كل خط وزاوية ، ولتكن التحقيق عربياً شاملًا يتجاوز حدود مصر ، فتجربة جمال عبد الناصر كانت تجربة عربية شاملة تجاوزت حدود مصر :

● لتحقق في الرجل نفسه ونزاذه ، وكل تصرف شخصي من تصرفاته ، وهل كان عفا في كل ما أتى ، أو أنه مال وانحرف ؟

● لتحقق في دعوته ، وهل كانت تعبرأً أصيلاً عن ضمير الأمة ، أو أنها كانت فرضاً فرض عليها بقهر السلطة ، ولنسائل أنفسنا أى سلطة قهر كانت له على جماهير الأمة العربية خارج حدود مصر ، وكانت هذه الجماهير بعيدة عن نطاق سلطته هي الاحتياطي الاستراتيجي لحركته .

● لتحقق في سياساته الخارجية ، وهل استطاعت هذه السياسة أن تجعل من العرب قوة سياسية ضخمة تتصدر التيارات الفاعلة في عصرها ، كحركة الثورة الوطنية في العالم ، وحركة معاوادة الاستعمار ، وحركة التضامن الآسيوي الأفريقي ، ومنطق الاستقلال وعدم الانحياز ، والإتجاه العام إلى مجتمع دولي يسوده السلام وتحكمه مبادئ القانون الدولي أو أن الرجل كان ضد التحرر وكان محالفاً للإستعمار داعية إلى الطغيان في مجتمع الدول ؟

● لتحقق في سياساته العربية ، وهل كانت مع التاريخ أو كانت ضد التاريخ ؟ وهل بادر أحداً بعده أو أنه اضطر إلى معاوته من عادوه لأنهم وقفوا ضد التاريخ وحاولوا تعطيل مسيرة الأمة ؟

● لتحقق في سياساته الداخلية :

في صيغة تحالف قوى الشعب العامل كبديل لدموية الصراع الطبقى ، وفي الإستجابة لتحديات مرحلة الإنقال من مجتمع مختلف اقتصادياً واجتماعياً ، وفي الإجراءات التي اضطر إلى اتخاذها لتكون للمجتمع المصري بداية سليمة على طريق الإنقال .

ول يكن التحقيق شاملاً في تجربة التصنيع في مصر ، وفي تجربة تطوير الزراعة ، وفي تجربة بناء قطاع عام يقود عملية التنمية ، وفي تجربة التخطيط لذلك كله ، وهل بلغت نسبة التنمية الشاملة في معظم سنوات عصره ٦,٧ % سنوياً ، وأى تجربة أخرى في العالم الثالث غير تجربته بلغت هذا الحد من النجاح ، رغم ما نعرف جميراً من ضغوط الحوادث والظروف .

ليكن التحقيق شاملاً كذلك لسياسات التأمين ، ولإجراءات الحراسة ، حالة حالة ، ولنشر القوائم ومعها الأسباب .

ول يكن التحقيق شاملاً أيضاً في كل ما يقال عن عمليات الاعتقال ، والفصل ، والتعذيب ، ودور المخابرات والباحث ، وهل كانت مصر تحت حكمه صورة جديدة من أليوم « العاصفة النازية » ، أو أن هذه التجربة لم تعتمد العنف [لا في أقل القليل وفي سبيل أكبر الكبير من المبادئ والأهداف ، مع التسليم سلفاً باحتمال وجود تجاوز لا بد من الحساب عنه والعقاب .

أزعم أن أي تحقيق منصف سوف يضع عبد الناصر حيث يجب أن يكون ، وحيث وضعته جماهير الأمة العربية التي لم تكتف بالإعراض عما يجري له في مصر الآن - بل عزلت قلول الظلام التي حاولت أن تحاصر قبره وتنبيشه ، كما فعل في تاريخ مصر القديم لصوص المقابر حتى في أهرامات مصر الشامخة .

إن ما حدث في مصر لعبد الناصر لم يحدث لزعيم وقائد في أي بلد من بلدان العالم [لا إذا كان هناك انقلاب مسلح على نظامه .
ومثل هذا الانقلاب لم يحدث قطعاً .

وعلى فرض أن انقلاباً مسلحاً كان قد حدث ، فإنى أشك في أنَّ حملة اليوم على الأمس كان يمكن أن تصل إلى هذا العنف .

ولم يكن من قبيل الأخطاء السياسية ما حدث ، ولكنه كان أسوأ ، فقد تعدى أخطاء السياسة إلى السقوط الأخلاقي . . . إلى نوع من الإنتحار المعنوى .

وليس هذه هي مصر ، ولا يمكن أن تكون هذه هي مصر . . . وهي بالفعل ليست مصر !

□ □ □

٨ - ثم أقول في الختام :

ـ لقد كانت تجربة جمال عبد الناصر ، براجبياتها وسلبياتها ، تجربة مصرية عربية إنسانية أصيلة .

ومناقشتها حق ، لكن إدانتها الشاملة على هذا النحو الذي يجري في مصر ، وبالوسائل والأساليب التي يتم بها ذلك في مصر ، باطل لا يصح .

ويبقى اعتقادى أنه لا يصح غير الصحيح .

ثم أتوقف عند عبارة بدأت بها هذه السلسلة من الأحاديث وتلك هي أننى لا أعطى لأحد حقاته ، ولا أعطى لأحد شرف تبرئته .

تلك كلها حقوق للجماهير . . وللامة . . وللتاريخ .

محمد حسين هيكل

هذا الكتاب لحظة من العمر لها إيقاع خاص : مزيج
متداخل من الحزن والشجن ، من الشعور بالاستفزاز
والرضا بقبول التحدى . وهي لحظة من العمر كانت
بداية لسبعين سنوات لها قيمة معينة في حياتي - من سنة
١٩٧٤ إلى سنة ١٩٨١ .

سبعين سنة من قتال شديد ، كان هذا الكتاب هو
المطلقة الأولى فيها من جانبى على الخطوط ، وبعدها
تزداد القصف المتبادل حتى وجدت نفسي في النهاية
وراء قضبان سجون « طرة » في سبتمبر سنة ١٩٨١
مع كثرين غيري لم يجدوا سفراً أمامهم عند نقطة
فاصلة من تاريخ مصر - غير حمل السلاح ، بال موقف
والقلم والكلمة - والدخول إلى ساحة المعركة .

محمد حسين هيكل